حاجة البشر إلى الدين

بادىء ذى بدء، لابد أن يعرف الإنسان لم خلق فى هذه الحياة؟ حتى يتضح له إن كان فى حاجة إلى الإسلام أم لا؟

لقد بين الله تعالى –فى كتابه العزيز– الهدف من خلق الإنسان حيث قال جل شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[1] فلم يخلق الله تعالى الثقلين: الإنس والجن إلا ليقروا بربوبيته ووحدانيته، ويعبدوه وحده لا شريك له، فهو لا يريد من خلقهم أن يساعدوه فى رزق ولو كان لأنفسهم فهو وحده الرزاق والمعطى، ولا يريد منهم أن يطعموه أو يطعموا خلقه فهو وحده الغنى الحميد.

قال البيضاوى: والمراد أن يبين أن شأنه مع عباده ليس شأن السادة مع عبيدهم، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم، فهو لا يريد أن يستعين بهم استعانة السادة بعبيدهم، فعليهم أن يشتغلوا بما خلقهم الله تعالى من أجله وهو عبادته وحده.

فهو سبحانه الرزاق ذو القوة المتين، وفى الحديث القدسى، يقول رب العزة:

«يا ابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك»[2]

والإنسان فى حياته الدنيا تتجاذبه قوتان:

القوة الأولى: تدفعه إلى الشر، بما فيه من نزعات ونزوات وغرائز وشهوات، وهذه القوة قد يصيبها الشطط فإذا به يتحول إلى طاغية يسفك الدماء أو ينتهك الأعراض.. إنها القوة الحيوانية المادية.

وأما القوة الثانية: فتدفعه إلى الخير والرشد بما خلق به الإنسان من عقل وفطرة خير كامنة فيه فهو يعرف الهدى والحق والعدل والمساواة، والأخذ بيد المحتاجين، وإغاثة الملهوفين.

---

(١) سورة الذاريات ٥٦ – ٥٨

(٢) رواه أحمد والترمذى

والإنسان حيال هاتين القوتين لا يستطيع وحده أن يقيم التوازن بين متطلبات الروح والعقل، وبين متطلبات البدن والغرائز.

إنه بحاجة إلى وحى معصوم يدله ويرشده ويبين له الحق ويكبح جماحه وينظم غرائزه، لأن مغريات الشهوة وزخرف الحياة الدنيا وهواجس النفس والشيطان كل ذلك يتغلب عليه، فإذا به يميل إلى جانب الشر والشهوة ويعب من المعاصى ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾(1).

لا منقذ للإنسان إلا الوحى المعصوم، والإيمان والعمل الصالح، وإلا فالخسران سيحيط به من كل جانب ﴿وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾(2).

ولو ترك الإنسان لهاتين القوتين تتجاذبانه لتغلب جانب الشر والنفس الأمارة بالسوء، على جانب الخير والعقل ولما تحققت حكمة الله عزوجل من خلق الإنسان التى حددها فى الآية السابقة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ تلك الحكمة التى بها جعله الله تعالى خليفة فى الأرض وعلمه ما لا تعلمه الملائكة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(3).

ولا يمكن للعقل وحده أن يهتدى إلى الحق والخير وذلك لأن العقول البشرية ليست سواء وإنما تتفاوت من إنسان لآخر فبينما يستحسن إنسان شيئا قد لا يستحسنه غيره، وبينما يأخذ إنسان بنظرية يرى فيها خير البشرية لا يأخذ بها غيره وقد يرى فيها ما يخالف ذلك وتلك طبيعة العقول البشرية، التى خلقت عليها فهى محدودة الإدراك والمعرفة.

هذا إلى جانب أن بعض الأهواء قد تؤثر فى رؤية العقل البشرى، كما قد يؤثر فيه تعصبه لأهله وذوى رحمه.

وإذا اقتنع أصحاب فكرة ما أو نظرية ما بما أداهم إليه اجتهادهم فإن هذا الاقتناع لا يلزم أن يصل إلى قلوب الغير أو يلزمهم به لأنه لم ينبع منهم، وعندما يمكنهم أن يفلتوا من رقابة القانون أفلتوا. لهذا كان العقل البشرى فى أمس الحاجة إلى من يقوده إلى الخير

(1) سورة يوسف ٥٣.

(2) أول سورة العصر.

(3) سورة البقرة ٣٠.

المحض والحق المحض وليس ذلك إلا فى هداية السـماء وإلا فى الوحى المعصوم: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[1] .

ومـن أجل هذا لم يخـل الله تعالى أمة من الأمم، ولا زمانا من الأزمنة دون أن يرسـل إليهم رسولا.

❑❑❑

(١) سورة طه ١٢٣، ١٢٤.

مصادر التشريع الإسلامى

المصدر الأول: الكتاب

الكتاب أو القرآن الكريم: هو كلام الله سبحانه وتعالى المنزل على سيدنا محمد ﷺ بلسان عربى مبين المنقول إلينا بين دفتى المصحف متواترا، تبيانا لما يكون به صلاح العباد دينا ودنيا وأخرى المعجز بأقصر سورة فيه المتحدى به.

والقرآن الكريم المصدر الأول للتشريع الإسلامى، بل هو عمدة التشريع وأصل الأدلة.

حجية القرآن:

والقرآن حجة على كل مسلم ومسلمة، وإن حجيته وضرورة العمل بما يهدى إليه معلوم لنا بالضرورة وأدلة وجوبه قاطعة، قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾(1).

وقال - ﷺ «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وسنتى» وانعقد الإجماع على وجوب اتباعه وأنه حجة.

وقد ثبتت حجيته بإعجازه، فليس فى طاقة إنس ولا جن أن يأتى بمثله، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(2).

وكما تحداهم رسوله ﷺ فى مكة بالقرآن الكريم تحداهم بعد أن هاجر مؤكدا أنهم عاجزون عن أن يأتوا بمثله ولا بعشر سور مثله ولا بسورة من مثله، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾(3).

---

(1) سورة الأنعام ١٥٥.

(2) سورة الإسراء ٨٨.

(3) سورة البقرة ٢٣ ، ٢٤.

ويتضح إعجازه فى بلاغة أساليبه وفصاحة ألفاظه ودقة تراكيبه وإخباره بالغيب مستقبله وماضيه وبقوة وعظمة معانيه، وبما احتوى عليه من هداية إلى أقوم السبل، تصلح كل زمان ومكان وقد دل بهذا كله على أنه منزل من عند رب العالمين ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[2].

والقرآن الكريم قطعى الثبوت، نقل بالتواتر جيلا بعد جيل، ونقله فى كل زمان جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب، والتواتر من طرق اليقين.

ودلالة القرآن بأساليبه وألفاظه قطعية كدلالة كل عدد على مدلوله الخاص فى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً﴾[3].

وقد تكون ظنية كدلالة الأقراء على الحيض أو على الطهر فى قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[4].

❑❑❑

(١) سورة النساء ٨٢.

(٢) سورة العنكبوت ٤٨، ٤٩.

(٣) سورة النور ٤.

(٤) سورة البقرة ٢٢٨.

المصدر الثانى: السنة

تعرف السنة عند أهل الحديث: بأنها أقوال النبى ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته وسيره ومغازيه وبعض أخباره وبهذا يتبين لنا أن السنة النبوية الشريفة أنواع كثيرة:

١- فمنهـــا مـــا كان قولا وهو أكثر أنواعها، ومثاله قول الرسـول ﷺ: ((يا أيها الناس اتقوا الله وأجملوا فى الطلب فإن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم)).

٢- ومنها السـنة الفعلية وهى أفعاله صلى الله عليه وسـلم التى رواها الصحابة عنه، مثل أدائه الصلوات الخمس بأركانها وسننها وهيئاتها وأدائه مناسك الحج والصوم والزكاة وغير ذلك من أعماله الشريفة ﷺ، ومن أمثلة السنة الفعلية ما أخبر به الصحابة وأمهات المؤمنين من أعمال الرسول ﷺ وأحواله، مثال ذلك ما روى عن عطاء بن يسار أن رجلا قبل امرأة وهو صائم فوجد من ذلك وجدا شـديدا فأرسـل امرأته تسأل عن ذلك فدخلت على أم سلمة أم المؤمنين فأخبرتها فقالت أم سلمة: إن رسول الله يقبل وهو صائم، فرجعت المرأة إلى زوجها فأخبرته، فزاده ذلك شرا، وقال: لسنا مثل رسول الله يحل الله لرسوله ما شاء فرجعت المرأة إلى أم سـلمة فوجدت رسـول الله ﷺ فقال: ما بال هذه المرأة؟ فأخبرته أم سـلمة، فقال: ألا أخبرتها أنى أفعل ذلك؟ فقالت أم سلمة قد أخبرتها فذهبت إلى زوجها فأخبرته فزاده شـرا وقال: لسـنا مثل رسول الله، يحل الله لرسوله ما شاء، فغضب رسول الله ثم قال: ((والله إنى لأتقاكم لله ولأعلمكم بحدوده))[1].

٣- القسـم الثالث: السـنة التقريرية وهى ما أقره الرسول ﷺ مما رآه بعض الصحابة فعلا كان أو قولا بأن يقع ذلك فى حضرته فلا ينكره بأن يسكت عنه أو يوافق عليه مظهر استحسـانه وتأييده فيعد ذلك إقرارا من ذلك ما رواه أبو سـعيد الخدرى رضى الله عنه أنه

(١) الموطأ ص ١٢٤ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وقال الزرقانى فى شرح الموطأ جـ٢ صـ٩٢: وصله عبد الرازق بإسناد صحيح عن عطاء عن رجل من الأنصار ورواه الشيخان: فتح البارى جـ٤ صـ١٣١ ومسلم فى صحيحه جـ١ صـ٣٠٥ من حديث عمر بن سـلمة، وأخرجه الإمام أحمد فى المسـند بنحوه جـ٥ صـ٤٣٤ وفى مجمع الزوائد جـ٣ صـ١٦٦ قال الهيثمى ورجاله رجال الصحيح وأخراجه الدرمى جـ١ صـ٢٤٥ بنحوه تحقيق السيد عبد الله يمانى.

خرج رجلان فى سفر وليس معهما ماء فحضرت الصلاة فتيمما صعيدا طيبا فصليا ثم وجدا الماء فى الوقت فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء ولم يعد الآخر ثم أتيا الرسول ﷺ فذكر ذلك فقال للذى لم يعد: ((أصبت السنة)) وقال للآخر: لك الأجر مرتين[١].

النسبة بين السنة، والحديث، والخبر، والحديث القدسى

سبق بيان أن المراد بالسنة هنا ما أراده المحدثون وهى مرادفة للحديث عند جمهورهم.

وأما الخبر: فهو عند علماء هذا الفن مرادف للحديث فيطلقان على المرفوع وعلى الموقوف وعلى المقطوع وقيل: الحديث ما جاء عن النبى ﷺ، والخبر ما جاء عن غيره، ومن ثم قيل لمن يشتغل بالسنة محدث وبالتواريخ ونحوها، إخبارى[٢] وقيل بينهما عموم وخصوص مطلق فكل حديث خبر ولا عكس (وقد يسمى المحدثون المرفوع، والموقوف من الأخبار أثرا إلا أن فقهاء خراسان يسمون الموقوف بالأثر والمرفوع بالخبر[٣].

وأما الحديث القدسى فهو كل قول أضافه الرسول ﷺ إلى الله عزوجل ويسمى حديثا لأن الرسول ﷺ يحكيه ويرويه عن ربه كما تروى الأحاديث ونسبته إلى القدس بمعنى الطهارة والتنزيه ونسب إلى الله لأنه صدر عنه تعالى.

وللعلماء فى الأحاديث القدسية رأيان:

الرأى الأول: أنها من كلام الله تعالى وليس للنبى ﷺ إلا حكايتها عن ربه سبحانه وذلك لأنها أضيفت إلى الله فقيل عنها قدسية وإلهية وأنها اشتملت على ضمائر التكلم الخاصة به تعالى، كقوله: (يا عبادى)، وأنها تروى عن الله تعالى متجاوزا بها النبى ﷺ فتارة يقول الراوى: (قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه) وتارة يقول: (قال تعالى فيما راوه عنه رسول الله ﷺ) والمعنى فيهما واحد.

والرأى الثانى: (أنها من قوله ﷺ ولفظه كالأحاديث النبوية وممن قال ذلك أبو البقاء وعبارته: (أن القرآن ما كان لفظه ومعناه من عند الله بوحى جلى، وأما الحديث القدسى

---

(١) رواه أبو داود عن أبى سعيد الخدرى حـ١ ١-٩٣ بتحقيق الأستاذ محيى الدين ٢ وسبل السلام حـ١ صـ٩٧ النسائى.

(٢) تدريب الراوى صـ٦.

(٣) المرجع السابق.

فهو ما كان لفظه من عند الرسـول ومعناه من عند الله بالإلهام أو بالمنام) واختار الطيبى[1] هذا الرأى أيضا، وحكمة إضافة الأحاديث القدسية إلى الله على هذا الرأى زيادة الاهتمام بها، والتوجيه إلى ما احتوته من آداب ومعان ومواعظ ومن بيان لعظمة الله تعالى وإظهار رحمته.

وأرجح الرأى الثانى: وهو أنها من قوله ﷺ ولفظه إذ لم ينزل باللفظ من قبل الله تعالى إلا القرآن الكريم لتمييزه عن بقية أنواع الوحى بأنه معجز من أوجه كثيرة: منها إعجازه اللفظى والبيانـى، فـلا تصح روايته بالمعنـى لأنه معجزة خالدة على مر الزمـان محفوظ من التبديل والتغيير قـال تعـالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾[2].

وأما رواية الأحاديث القدسـية عن الله تعالى وإضافتها إليه واشـتمالها على ضمائر التكلم الخاصة به سـبحانه فهذا على معنى أن الله تعالى أمر جبريل عليه السـلام أن يقول للرسول ﷺ: افعل كذا، وأمر بكذا.. فيبلغ الرسول ﷺ ذلك بألفاظ من عنده ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴾[3].

الفرق بين الأحاديث القدسية والقرآن:

١- أن الأحاديث القدسية ما كان لفظها من عند النبى ﷺ على رأى البعض ومعناها من عنـد الله بالإلهـام أو بالمنام بوحى جلى أولا وأما القرآن فهو ما كان لفظه ومعناه من عند الله بوحى جلى بمعنى: أن ينزل به جبريل عليه السـلام بلفظه من عند الله سـبحانه فى اليقظة وليس فى المنام ولا بالإلهام.

٢- الأحاديث القدسية تصح روايتها بالمعنى، أما القرآن فتحرم قراءته بالمعنى.

٣- الأحاديث القدسية لا يتعبد بقراءتها أما القرآن فيتعبد بقراءته ويتعين فى الصلاة ولا كذلك الأحاديث القدسية.

٤- أن القرآن الكريم معجزة خالدة متواتر اللفظ فى كلماته وحروفه وأساليبه أما الأحاديث القدسية فليس لها هذا التواتر وليست معجزة.

---

(١) قواعد التحديث ص ٦٦.

(٢) سورة الإسراء ٨٨.

(٣) سورة النجم ٣ – ٥.

٥- أن القرآن يحرم على المحدث مسه، وعلى الجنب تلاوته ومسه بخلاف الأحاديث القدسية.

الفرق بين الحديث القدسى والنبوى:

هو أن الحديث القدسى مقطوع بنزول معناه من عند الله تعالى لما ورد فيه من النص الشرعى على نسبته إلى الله بقول الرسول ﷺ: قال الله تعالى كذا.. فلذا سمى قدسيا أما الحديث النبوى فلم يرد فيه مثل هذا النص لأن منه ما هو (توفيقى) مستنبط بالاجتهاد والرأى من كلام الله ومنه ما هو (توقيفى) جاء به الوحى إلى الرسول ﷺ فبينه للناس بكلامه وهذا القسم وإن كان مرجعه إلى الله تعالى الملهم والمعلم إلا أنه لما كان من قول الرسول ﷺ ووضعه كان حريا أن ينسب إليه ويطلق على القسمين حديثا نبويا وقوفا بالتسمية عند الحد المقطوع به[1].

❑❑❑

(١) النبأ العظيم للدكتور/ محمد عبد الله دار طبع مطبعة للسعادة صـ ١٠١.

منزلة السنة فى الدين

السنة هى الأصل الثانى من أصول الإسلام، أجمع فقهاء المسلمين قديما وحديثا من لدن الصحابة رضوان الله عليهم إلى يومنا هذا إلا من شذ من بعض الطوائف على الاحتجاج بها واعتبارها المصدر الثانى للدين بعد القرآن الكريم فيجب اتباعها وتحرم مخالفتها وقد تضافرت الأدلة القطعية على ذلك فأوجب الله سبحانه على الناس طاعة رسوله ﷺ وبين أنه عليه الصلاة والسلام هو المبين لما أنزل من القرآن، وذلك بعد أن عصمه من الخطأ والهوى فى كل أمر من الأمور ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾(١) كما عصمه من الناس حين أمره بتبليغ ما أنزل إليه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾(٢).

فهو إذا قد مهد لرسوله طريق الدعوة وذلل له مهمة تبليغها فبين سبحانه وتعالى للناس ما يأتى:

أولا: وجوب طاعة الرسول ﷺ.

ثانيا: أن الرسول ﷺ هو الذى يبين للناس كتاب ربهم سبحانه وتعالى.

وهذان الأمران متلازمان فى إثبات حجية السنة لأن الله تعالى أوجب طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام لأنه مبين للناس ما أنزل إليهم، قال الشاطبى: (فإذا عمل المكلف على وفق البيان أطاع الله فيما أراد بكلامه وأطاع رسوله فى مقتضى بيانه ولو عمل على مخالفة البيان عصى الله تعالى فى عمله على مخالفة البيان إذ صار عمله على خلاف ما أراد بكلامه وعصى رسوله فى مقتضى بيانه(٣).

وسأتناول الحديث عن هذين الأمرين وهما وجوب طاعة الرسول ﷺ وبيان أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذى يبين للناس ما نزل إليهم.

---

(١) سورة النجم ٣ – ٥.

(٢) المائدة ٦٧.

(٣) الموافقات (٤ / ١٩).

أولا: وجوب طاعة الرسول ﷺ:

فرض الله سبحانه وتعالى طاعة رسول الله ﷺ وورد الأمر بها فى القرآن الكريم على وجوه تختلف باختلاف أحوال المخاطبين ومشاربهم ونياتهم، فمنهم اليهودى الذى يحتاج إلى كثرة الأدلة والمنافق الذى يحتاج إلى أسلوب التهديد، والمؤمن الذى يقبل الأمر ويعرف هداية الله من أقرب طريق وقد سلكت آيات القرآن الكريم فى بيان ذلك مسلكا مناسبا ونهجت منهجا حكيما:

١- فقد دلت مرة على وجوب طاعة الرسول بالأمر بالإيمان بالرسل وهذا يستلزم وجوب طاعة الرسول ﷺ، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(2).

فالأمر بالإيمان بالرسل مع الإيمان بالله لا يكون إلا إذا كان مع الإيمان تصديق لما يبلغه الرسول عن الله وإذعان وطاعة لهديهم وعلى هذا فرسولنا صلوات الله وسلامه عليه يجب الإيمان به للأمر. الإيمان بالرسل وطاعته واجبة كطاعتهم التى استلزمها الأمر بالإيمان بهم.

٢- ودلت الآيات أيضا على وجوب طاعة الرسول ﷺ باقتران الأمر بالإيمان به مع الأمر بالإيمان بالله سبحانه، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾(3) وقال الله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(4).

(١) سورة النساء ١٧١.

(٢) سورة آل عمران ١٧٩.

(٣) سورة النساء ١٣٦.

(٤) سورة التغابن ٨.

وقد أظهر الله تعالى فى هذه الآيات وغيرها مكانة نبيه ﷺ، فنص على الإيمان به ولم يكتف بالأمر العام السابق رغم دخوله فيه، وذلك لأن رسالته خاتمة وبعثته عامة فاقتضت الحكمة أن يخص بمزيد عناية، ويفهم من ذلك الأمر بطاعته قال الإمام الشافعى رضى الله عنه: (وضع الله رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذى أبان جل ثناؤه أنه جعله علما لدينه لما افترض من طاعته وحرم من معصيته وأبان من فضيلته بما قرن من الإيمان برسوله مع الإيمان به فقال تبارك وتعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ﴾[1] .

وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ﴾[2].

فجعل كمال ابتداء الإيمان الذى ما سواه تبع له الإيمان بالله ثم برسوله[3].

٣- كذلك دلت الآيات على وجوب طاعة الرسول ﷺ بإيجاب الله تعالى طاعة الرسل قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾[4] فطاعة الرسل إذا هى الهدف من إرسالهم ورسولنا ﷺ كواحد من الرسل داخل فى مضمون الحكم العام فينطبق عليه الحكم بوجوب طاعته لا سيما والرسل قبله كانت شرائعهم خاصة بطائفة معينة أما رسولنا عليه الصلاة والسلام فشريعته عامة وخاتمة لذا كانت طاعته أكد وألزم.

٤- اقتران الأمر بطاعة الرسول بالأمر بطاعة الله قال تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[5] .

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾[6].

---

(١) سورة النساء ١٧١.

(٢) سورة النور ٦٢.

(٣) الرسالة للإمام الشافعى صـ ٧٣

(٤) سورة النساء ٦٤.

(٥) سورة آل عمران ٣٢.

(٦) سورة النساء ٥٩.

والناظر إلى الآيات الواردة فى طاعة الرسول ﷺ يرى أن منها ما جاء الأمر بطاعة الله مقروناً بالأمر بطاعة الرسول بالعطف بالواو كالآية الأولى حيث يفيد ذلك مطلق الاشتراك والجمع بينهما، أو بطريق العطف بها مع إعادة العامل حيث يفيد ذلك تأكيد عموم الطاعة فى كل ما يصدر عن الرسول ﷺ ومنها ما جاء بتكرار العامل فى شيئين مع العطف على الأخير بدون تكرار العامل كقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ بدون تكرار العامل فى عطف أولى الأمر.

وهذا يدل على أن أولى الأمر ليس لهم طاعة مستقلة، وليس لهم تشريع خاص يصدر عنهم (وإنما يطاعون فيما شأنه أن يتلوه ويباشروه فى إطار من الدين الذى شرعه الله قرآنا كان أو سنة)[1] فطاعة الرسول إذا واجبة فى كل ما أتى به سواء كان فى الكتاب الكريم أو ليس فيه.

٥- أمر الله بطاعة الرسول على الإنفراد قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾[2] وقال تعالى ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾[4] ففى هذه الآيات نص صريح على وجوب طاعة الرسول والتسليم لحكمه واتباعه وهذه الطاعة فى حال حياته وبعد وفاته ففى حال حياته كان الصحابة يتلقون أحكام الشرع من القرآن الذى أخذوه عن رسولهم ﷺ حيث كان يبين لهم ما أنزل إليهم، وحيث كان كذلك يبين لهم كثيرا من الأحكام حين تقع منهم الحوادث التى لم ينص عليها فى القرآن فهو إذا كان يطبق لهم الأحكام من حلال أو حرام مما كان مصدره القرآن أو الوحى الذى يوحيه الله له ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾[5] وقد حث الله على

(١) السنة النبوية ومكانتها فى التشريع ص (٥٨)

(٢) سورة النساء ٦٥.

(٣) سورة النور ٥٦.

(٤) سورة الحشر ٧.

(٥) سورة الأعراف ١٥٧.

الاستجابة لما يدعو له الرسول ﷺ فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[1] ولم يبح الله لمؤمن ولا مؤمنة مخالفة حكم الرسول أو أمره قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾[2] وقد كان المسلمون ملتزمين حدود أمره ونهيه ومتبعين له فى عبادتهم ومعاملاتهم وقد بلغ من طاعتهم للرسول واقتدائهم به أنهم كانوا يفعلون ما يفعل ويتركون ما يترك ولم يجز واحد منهم لنفسه مراجعة الرسول إلا إذا كان هناك أمر غريب عن عقولهم فيناقشونه ليعرفوا الحكمة فيه فقط كما لم يجز واحد منهم مراجعته فى أمر (إلا إذا كان فعله أو قوله اجتهادا منه فى أمر دنيوى كما فى غزوة بدر حين راجعه الحباب بن المنذر فى مكان النزول)[3] ومثل هذا إنما حدث تطبيقا لمبدأ الشورى فى الإسلام.

وإذا كان الحال هكذا فى حياة الرسول ﷺ، فإنه أيضا تجب طاعته واتباع سنته بعد وفاته لأنه صلوات الله وسلامه عليه انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن اطمأن تماماً على أنه أرسى معالم الدين وأدى الأمانة الإلهية على منهاج الحق ووصى المسلمين أن يطيعوه ويتبعوه بعد وفاته تمسكا بالكتاب والسنة وسيرا على هديهما كما قال ﷺ: (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتى)[4] وكما وجب على الصحابة بنص القرآن اتباع الرسول وطاعته فى حياته وبعد مماته كما فى الحديث السابق وجب على من بعدهم من المسلمين اتباع سنته بعد وفاته لأن النصوص التى أوجبت طاعته عامة لم تقيد ذلك بزمن حياته ولا بصحابته دون غيرهم ولأن العلة جامعة بينهم وبين من بعدهم وهى أنهم أتباع لرسول أمر الله باتباعه وطاعته[5] لهذا كله تلقى الصحابة السنة النبوية وبلغوها إلى من بعدهم.

---

(١) سورة الأنفال ٢٤.

(٢) سورة الأحزاب ٣٦.

(٣) السنة ومكانتها فى التشريع صـ ٦٦.

(٤) أخرجه الحاكم فى المستدرك وفى جامع بيان العلم وفضله جـ ٢ ص ١٨٠ والموطأ شرح الزرقانى، والترغيب والترهيب.

(٥) السنة ومكانتها فى التشريع صـ ٦٧.

ثانيا: منزلة السنة من القرآن وبيانها له:

تبين من البحث السابق أن طاعة الرسول ﷺ واجبة على المسلمين وأنهم تقبلوا منه السنة كما تقبلوا القرآن مستجيبين لله الذى أمرهم باتباع النبى وطاعته وذلك لأن الرسول ﷺ مهمته هى التبليغ وبيان ما فى القرآن من أحكام وقواعد وغير ذلك فرسالته ليست قاصرة على التبليغ وإنما لا بد مع التبليغ من البيان وهو الأمر الثانى فى إثبات حجية السنة.

فالقرآن الكريم جاء بالأصول العامة ولم يتعرض للتفاصيل والجزئيات ولم يفرع عليها إلا بالقدر الذى يتفق مع تلك الأصول ويكون ثابتا بثبوتها لا يعتريه تغير أو تطور باختلاف الأعراف والبيئات ومرور الأزمان لأنه الكتاب الخالد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه اشتمل على العقائد والشرائع وعلى الآداب والأخلاق فكان تبيانا لكل شىء وجاءت السنة الشريفة توافق الكتاب الكريم وتتعرض للتفصيلات والجزئيات: ففسرت مبهمة وفصلت مجمله وقيدت مطلقه وخصصت عامه وشرحت أحكامه كما أتت السنة كذلك بأحكام لم يرد فى القرآن نص عليها وجاءت بهذا متممة ومطبقة لما فى القرآن الكريم فكانت مرتبتها بعد القرآن.

(وأيضا فإن السنة إما أن تكون بيانا للكتاب أو زيادة عليه، فإن كانت بيانا فهى فى الاعتبار بالمرتبة الثانية عن المبين، فإن النص الأصلى أساس والتفسير بناء عليه وإن كانت زيادة فهى غير معتبرة إلا بعد أن لا توجد فى الكتاب وذلك دليل على تقدم اعتبار الكتاب)[1].

وكل ما جاء فى السنة النبوية على لسان الرسول ﷺ إنما يتبع فيه ما يوحى إليه قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّى مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[2] ولهذا جعل الله تعالى طاعة رسوله طاعة له وأوجب على المسلمين اتباع بيانه فيما يأمر وينهى قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[3] وقال:

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع صـ ٤٢٤.
(٢) سورة الأنعام ٥٠.
(٣) سورة النساء٨٠.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1] إذا فالرسول صلوات الله وسلامه عليه حين يبين للناس ما نزل إليهم لا يصدر فى بيانه من تلقاء نفسه وإنما يتبع ما يوحى إليه وقد امتن الله تعالى على رسوله بأن أنزل عليه الكتاب ليشرح ما جاء فيه ويظهر المراد منه فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[2].

وروى المقدام بن معد يكرب قال: حرم النبى ﷺ أشياء يوم خيبر منها الحمار الأهلى وغيره فقال رسول الله ﷺ: يوشك الرجل منكم على أريكة يحدث بحديثى فيقول بينى وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه وأن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله[3].

وينقسم بيان السنة إلى أقسام:

الأول: بيان التقرير وهو أن تكون السنة موافقة لما جاء به القرآن ومؤكدة له ومن ذلك:

ما روى عن ابن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (بنى الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة والحج، وصوم رمضان)[4] فإنه يوافق قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[5] وقوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[6] وقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[7].

الثانى: بيان التفسير لما جاء فى القرآن، وهذا القسم أغلب الأقسام وأكثرها ورودا فمنه بيان المجمل كالأحاديث التى بينت العبادات وكيفياتها كفريضة الصلاة مثلا فقد فرضها

---

(١) سورة الحشر ٧.

(٢) سورة النحل ٤٤.

(٣) رواه الترمذى ٢: ١١١ وابن ماجه ١: ٥ والدارمى ١١: ١١٧ تحقيق السيد عبد الله يمانى ورواه الإمام أحمد فى المسند ٤: ١٣٠ وهو حديث صحيح كما قال الترمذى.

(٤) فتح البارى جـ ١ صـ ٥٥ ورواه مسلم عن طريق سعد بن عبيدة بتقديم الصوم على الحج جـ١ ص ١٦٠ ط الشعب ورواه أيضا بتقديم الحج على الصوم صـ ١٥١ ورواه الترمذى جـ٤ صـ١١٦ وقال حديث صحيح والمسند ٣٦٤/٤

(٥) سورة البقرة ١١٠.

(٦) سورة البقرة ١٨٣.

(٧) سورة آل عمران ٩٧.

الله تعـالى فـى القرآن من غير أن يبيـن أوقاتها وعدد ركعاتها وأركانهـا وكيفيتها، فبين الرسـول صلوات الله وسـلامه عليه ذلك بصلاته وتعليمه الناس وقال (صلوا كما رأيتمونى أصلـى)[1]، ومثل ذلك فـى الحج والزكاة وغير ذلك من العبـادات التى وردت فى القرآن مجملة وفصلتها السنة النبوية.

ومـن هذا القسـم تقييد المطلق كالأحاديـث التى بينت المراد من اليـد فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾[2] فوضحت السنة أنها اليد اليمنى وأن القطع من الكوع لا من المرفق[3].

ومن هذا القسم أيضا تخصيص العام كالأحاديث التى خصصت الوارث والمورث فى قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾[4] فخصت السـنة المورث بغير الأنبياء قال ﷺ: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة)[5] كما خصت السنة الوارث بغير القاتل يقول الرسـول ﷺ: (ليس للقاتل شـىء وإن لم يكن له وارث فوارثه أقرب الناس إليه، ولا يرث القاتل شيئا)[6].

الثالث: أن تكون السـنة ناسـخة لحكم ثبت بالقرآن على رأى من يجوز نسخ الكتاب بالسـنة وهذا مثل حديث (لا وصية لوارث) فبهذا الحديث نسـخ حكـم الوصية للوالدين والأقربـين الوارثين الثابت بقوله تعـالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[7] والنسخ مـن قبيل البيان لأنه بيان انتهاء أمد الحكم ولذلك يطلق عليه بعض علماء الأصول بيان التبديل[8].

---

(١) أخرجـه البخـارى جـ١ صـ ١٢٥ حاشـية السـندى، وأخرجه الدرامىجـ١ صـ ٢٣٠بتحقيق السـيد يمانى٢ وأخرجه الإمام أحمد والنسائى جـ٢ صـ ٥٩ بنحو والشافعى فى مسنده صـ١٩.

(٢) سورة المائدة ٣٨.

(٣) الحديث والمحدثون صـ ٣٨.

(٤) سورة النساء ١١.

(٥) رواه ابو داود فى سـنه (٤ :٣١٣) من طريق بن راشـد بإسـناد صحيح ورواه الترمذى (٢ : ١٤) سنن ابن ماجة : (٢ : ٧٤).

(٦) سبق تخريجه صـ ٦.

(٧) سورة البقرة ١٨٠.

(٨) الحديث والمحدثون صـ ٤٠.

الرابع: أن تكون السنة دالة على حكم لم يرد فى القرآن وهذا القسم اختلف العلماء فيه، فذهب الجمهور إلى أن السنة أثبتت أحكاما جديدة على طريق الاستقلال.

وذهب صاحب الموافقات وآخرون إلى أنها أثبتت أحكاما داخلة تحت نصوص القرآن ولو بتأويل.

وقال الشافعى رحمه الله فى القسمين الأول والثانى: (والوجهان يجتمعان ويتفرعان).

أحدهما: ما أنزل الله فيه نص كتاب فبين رسول الله مثل ما نص الكتاب.

والآخر مما أنزل الله فيه جملة كتاب فبين عن الله معنى ما أراد وهذان الوجهان اللذان لم يختلفوا فيهما[1].

ثم ذكر الإمام الشافعى هذا القسم الذى دلت السنة فيه على حكم لم يرد فى القرآن فذكر اختلاف العلماء فيه قال (فمنهم من قال جعل الله له بما افترض من طاعته وسبق فى علمه من توفيقه لرضاه أن يسن فيما ليس نص كتاب.

ومنهم من قال لم يسن قط إلا ولها أصل فى الكتاب كما كانت سنته لتبين عدد الصلاة وعملها على أصل جملة فرض الصلاة وكذلك ما سن من البيوع وغيرها من الشرائع لأن الله قال: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[2] وقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[3] فما أحل وحرم فإنما بين فيه عن الله كما بين الصلاة ومنهم من قال بل جاءته به رسالة الله فأثبتت سنته بفرض الله ومنهم من قال (ألقى فى روعه كل ما سن وسنته الحكمة التى ألقى فى روعه عن الله فكان ما ألقى فى روعه سنته[4].

ويتضح من كلام الإمام الشافعى السابق أن أصحاب الرأى الأول والثالث والرابع يرون أن السنة تستقل بالتشريع فى بعض الأمور، أما أصحاب الرأى الثانى فيرون أنها لا تستقل بالتشريع وإنما تدخل أحكامها ضمن نصوص القرآن.

أدلة القائلين بالاستقلال:

استدل القائلون باستقلال السنة بالتشريع فى بعض الأمور بأنه قد ورد فى القرآن الكريم

(١) الرسالة صـ ٩٢.

(٢) سورة النساء ٢٩.

(٣) سورة البقرة ٢٧٥.

(٤) الرسالة للإمام الشافعى صـ٩٣.

ما يوجب طاعة الرسول ﷺ وأتباعه قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾[2] فدلت الآيات على وجوب طاعة الرسول ﷺ فيما يأمر به وينهى عنه دون تفريق بين السنة المبينة أو المؤكدة أو المستقلة، وهكذا كل أدلة القرآن تدل على أن ما جاء به الرسول ﷺ وكل ما أمر به ونهى فهو لاحق فى الحكم بما جاء فى القرآن فلا بد أن يكون زائدا عليه[3].

كما وردت بعض الأحاديث الدالة على وجوب الأخذ بما فى السنة من الأحكام كما يؤخذ بما فى الكتاب مثل قوله ﷺ (يوشك بأحدكم أن يقول هذا كتاب الله ما كان فيه من حلال أحللناه وما كان فيه من حرام حرمناه ألا من بلغه عنى حديث فكذب به فقد كذب الله ورسوله والذى حدثه)[4].

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بتبليغ أحكامه سواء كان بالكتاب أو غيره، وعصمه من الخطأ فلا مانع من استقلال السنة بالتشريع.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾[5] فلا تفيد الآية قصر مهمة الرسول ﷺ على البيان بل يستفاد منها ومن قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[6] أن الرسول يبين للناس كتاب ربهم وإذا جاوز البيان إلى الأحكام التى لم يتعرض لها القرآن فإنه حينئذ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى، وقد صرح بذلك بعض علماء السلف فمن ذلك ما يروى عن عبد الرحمن بن يزيد أنه رأى محرما عليه ثيابه فنهاه فقال: ائتنى بآية من كتاب الله تنزع ثيابى فقرأ عليه (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)[7].

(١) سورة النساء ٨٠.
(٢) سورة الحشر٧.
(٣) الموافقات (٤:١٣).
(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط عن جابر.
(٥) سورة النحل ٤٤.
(٦) سورة النساء ٥٩.
(٧) جامع بيان العلم جـ٢ ص١٨١ الحديث والمحدثون ص٤٤.

أدلة المنكرين للاستقلال:

وقد استدل أصحاب هذا الرأى بأن السنة بيان للقرآن، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(٨) وأجابوا عن أدلة القائلين باستقلال السنة بأن الآيات التى تفيد وجوب طاعة الرسول يقصد منها وجوب طاعته فى بيانه وشرحه (ولا يلزم من أفراد الطاعتين تباين المطاع فيه بإطلاق فلا دليل فيها على أن ما فى السنة ليس فى الكتاب وإذا كانت هناك أحكام زائدة فليست زائدة بزيادة شىء ليس فى القرآن بل زيادة الشرح على المشروح)(٩).

وعلى هذا الرأى تكون الأحكام الواردة فى السنة اشتمل القرآن عليها بطريق الإجمال فصح أن تكون السنة بيانا للقرآن عن طريق الإلحاق أو القياس أو استنباط القواعد العامة من الجزئيات أما الإلحاق فقد ينص القرآن على حل شىء وحرمة شىء آخر ويكون هناك شىء ثالث لم ينص على حكمه وهو أخذ من كل منهما بطرف فيكون ثم مجال للاجتهاد فى إلحاقه بأحدهما فيعطيه النبى ﷺ حكم أحدهما ومثال ذلك: أن الله تعالى أحل صيد البحر فيما أحل من الطيبات وحرم الميتة فيما حرم من الخبائث فدارت ميتة البحر بين الطرفين وأشكل حكمها فقال ﷺ: (هو الطهور ماؤه الحل ميتته)(١٠).

وأما القياس فقد ينص القرآن على حكم شىء فيلحق به ﷺ ما يشاركه فى العلة قياسا عليه ومثال ذلك أن الله تعالى حرم الجمع بين الأختين ثم قال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾(١١).

ثم جاء نهيه ﷺ عن الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها من باب القياس كما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تنكح المرأة على عمتها ولا العمة

(٨) سورة النحل ٤٤.

(٩) السنة ومكانتها فى التشريع ص ٤٣٢ بتصرف يسير.

(١٠) أخرجه أصحاب السنن: سنن أبى داود بتحقيق محمد محيى الدين جـ١ صـ٢١ والترمذى جـ١ صـ٤٧ وقال هـذا حديث حسـن صحيح ورواه الإمام مالك فى الموطأ صـ٤٣ المجلس الأعلى والدارمى جـ١ صـ١٥١ كلهم برواية أبى هريرة.

(١١) النساء ٢٤.

على بنت أخيها ولا المرأة على خالتها ولا الخالة على بنت أختها ولا تنكح الكبرى على الصغرى ولا الصغرى على الكبرى)[١].

وأما طريق استنباط القواعد العامة من نصوص القرآن الجزئية فذلك بأن تأتى نصوص من القرآن فى معان مختلفة لكن يشـملها معنى واحد فتأتى السنة بمقتضى ذلك المعنى الواحد فيعلـم أنه مأخوذ من مجموع تلك النصوص ومثال ذلـك قوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى)[٢].

فهاتان قاعدتان تؤخذان من الآيات التى تحث على الإخلاص مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٣] وقولـه تعـالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾[٤] وقولـه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾[٥].

ويمكـن الجمـع بين ما ذهب إليه الفريقان بأن الجميـع متفقون على وجود أحكام فى السـنة لم ينص عليها فى القرآن ولكن القائلين بأن السـنة لا تأتى بأحكام زائدة عما فى القـرآن أرادوا أن القرآن اشـتمل على جميـع الأحكام إجمالا أو تفصيـلا فعلى رأيهم أن الأحكام داخلة تحت النصوص بوجه من الوجوه.

وأمـا القائلون بأنها تأتـى بأحكام زائدة فأرادوا بذلك الأحـكام التفصيلية التى لم يرد فيها نص صريح فعلى رأيهم أن السنة تستقل بالتشريع لأنها أثبتت أحكاما جديدة، فكل واحد من الفريقين متفق على وجود أحكام زائدة عما فى القرآن وإنما الخلاف فى مخرجها فالخلاف إذا لفظى لأن النتيجة واحدة وهى وجود أحكام جديدة سواء سمى ذلك استقلالا أم لا[٦].

❑❑❑

---

(١) صحيح مسـلم بشـرح النووى جـ٣ صـ٥٦٢ الموطأ صـ١٧٧ الأم جـه صـ٤، نيل الأوطار جـ٦ ص٢٨٥ سنن أبى داود جـ٢ صـ٢٢٤ الترمذى جـ٢ صـ٢٩٧وقال: حديث حسن صحيح وابن حبان بزيادة فإنكم إذا فعلتم قطعتم أرحامكم وهو المعنى الذى حرم الجمع بسببه.

(٢) فتح البارى جـ١ صـ٩ المسـند جـ١ صـ٢٠٢ ورواه مسـلم جـ٦ صـ٤٨ والترمذى جـ٦ صـ٤٨ وهو حديث حسـن صحيح.

(٣) البينة ٥.

(٤) الزمر ٣.

(٥) الكهف ١١٠.

(٦) الحديث والمحدثون ص ٤٥ السنة ومكانتها فى التشريع ص ٤٢٣.

المصدر الثالث: الاجتهاد

والاجتهاد: هو بذل المجتهد طاقته فى استنباط حكم شرعى من الدليل بحيث يرى أنه لا زيادة على ذلك.

ويتسع مجال الاجتهاد ليشمل ما لم يرد بشأنه نص فى القرآن الكريم أو فى السنة الشريفة.

كما يدخل فى مجال الاجتهاد أيضا ما كان ظنى الثبوت فيبحث المجتهد فى سنده وفى روايته ليرى هل يصلح للاستدلال به أم لا يصلح.

ويدخل كذلك فى مجال الاجتهاد ما كان ظنى الدلالة ويكون اجتهاد المجتهد فى هذا النوع من جهة تفسيره أو تأويله ومدى دلالته على المعنى المراد وفى خصوصه أو عمومه.

وحجية الاجتهاد بالنسبة للنصوص الشرعية: إنما يكون من جهة ثبوتها أو دلالتها وعمومها وخصوصها وهل تدخل الجزئيات فى النص أم لا؟

وأما إذا كان اجتهاد المجتهد فى معرفة حكم لشىء لم يرد بشأنه نص:

فقال البعض من الشيعة والمعتزلة إنه ليس بحجة ويرى جمهور علماء المسلمين أنه جائز شرعا وعقلا بل عندما تكون الحاجة ملحة إليه وشديدة فإنه يكون واجبا ومما يدل على جواز الاجتهاد قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (١).

فأمر الله تعالى فى الآية الكريمة بطاعته سبحانه وتعالى وذلك بالتمسك بالقرآن الكريم وبطاعة رسوله ﷺ وذلك بالتمسك بالسنة المشرفة وأمر بطاعة أولى الأمر فى غير معصية الله تعالى فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق وفى قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ ما يفيد أن أولى الأمر الذين تجب طاعتهم يجب أن يكونوا منا والمخاطبون فى الآية الكريمة هم المؤمنون ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فشرط طاعتهم أن يكونوا مؤمنين.

﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ يفيد أنهم عندما يختلفون فى حكم من الأحكام لا يلجأون إلى الهوى بل يجتهدون فى استنباط الحكم من روح الآية والحديث

(١) سورة النساء ٥٩.

بالبحث عما قد يكون غير واضح أو يكون غائبا عن العقول أو بتطبيق القواعد العامة بإلحاق الشبيه بشبيه، ولا شك أن قوله ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ يفيد هذا الاجتهاد إذ لو كان المراد به مجرد الطاعة لكان ذلك من قبيل التكرار الخالى من الفائدة وهو ما يتنزه عنه القرآن الكريم.

ومن الأدلة على جواز القياس من السنة النبوية: ما روى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعثه إلى اليمن قال له: كيف تقضى إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضى بما فى كتاب الله، قال: فإن لم يكن فى كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم يكن فى سنة رسول الله قال: أجتهد رأيى ولا ألو، قال معاذ فضرب رسول الله ﷺ صدرى وقال:

الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله[1].

والحديث وإن كان مرسلا فإنه مما تلقته الأمة بالقبول واستحسنه كثير من المحدثين.

* كما يدل العقل أيضا على جواز الاجتهاد لأن الشريعة الإسلامية جاءت لكل زمان ومكان وهى خاتمة الشرائع ومما لا شك فيه أن الحوادث والأمور التى تجد فى الحياة تحتاج إلى بيان حكم الشريعة فيها وهذا بالاجتهاد فى إلحاقها بنظائرها مما ورد بشأنها نص.

*** ومن أمثلة الاجتهاد فى عهده ﷺ:**

ما روى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال خرج رجلان فى سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فتيمما صعيدا طيبا فصليا ثم وجدا الماء فى الوقت، فأعاد أحدهما الوضوء والصلاة ولم يعد الآخر ثم أتيا رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له فقال للذى لم يعد: (أصبت السنة وأجزأتك صلاتك) وقال للذى توضأ وأعاد: (لك الأجر مرتين[2] فأقر كلا منهما على اجتهاده ولم يزد على أحد منهما اجتهاده الذى اجتهده).

والمراد بقوله: (أصبت السنة) أى الشريعة الواجبة ومعنى (وأجزأتك صلاتك): أى كفتك عن القضاء، والإجزاء معناه: أن يكون الفعل مسقطا للإعادة.

---

(١) رواه أبو داود والترمذى والدار مى.

(٢) رواه النسائى وأبو داود، وهذا الحديث لفظ أبى داود.

من اجتهادات الصحابة رضى الله عنهم

ومن اجتهادات سيدنا أبى بكر رضى الله عنه:

– اجتهاد سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى موضوع المرتدين الذين منعوا الزكاة مع إقرارهم بالإسلام وإقامتهم للصلاة واجتهد أبو بكر رضى الله عنه فى أن يقاتلهم حتى يؤدوا الزكاة التى كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ.

روى البخارى بسنده أن أبا هريرة رضى الله عنه قال: لم توفى رسول الله ﷺ وكان أبو بكر رضى الله عنه، وكفر من كفر من العرب فقال عمر رضى الله عنه: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله.

قال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها.

قال عمر رضى الله عنه: فو الله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبى بكر رضى الله عنه فعرفت أنه الحق[1].

ومن اجتهادات سيدنا عمر رضى الله عنه:

ما روى ابن عباس رضى الله عنهما أن الطلاق الثلاث دفعة واحدة كان يعد واحدة على عهد رسول الله ﷺ وعهد أبى بكر رضى الله عنه وسنتين من خلافة عمر رضى الله عنه.

ثم وجد عمر أن الناس قد أكثروا منه مع مخالفته لما شرع الله فقال:

إن الناس قد استعجلوا فى أمر كان لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم، تأديبا للمطلقين وزجرا لغيرهم.

ومن ذلك أيضا اجتهاده فى عام المجاعة فى عهده حيث كثرت السرقات فأوقف الحد وهو قطع يد السارق أو السارقة المذكور فى قول الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[2] .

---

(١) رواه البخارى.

(٢) سورة المائدة ٣٨.

أنواع الاجتهاد

والاجتهاد نوعان: اجتهاد فردى واجتهاد جماعى:

فأما الاجتهاد الفردى: فهو أن يجتهد فرد فى مسألة من المسائل كاجتهاد معاذ رضى الله عنه عندما بعثه الرسول ﷺ إلى أهل اليمن.

ومثل اجتهاد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فى تقسيم العطاء بين المهاجرين والأنصار. وأمثلة هذا النوع كثيرة.

وأما النوع الثانى وهو الاجتهاد الجماعى فهو كل أمر اتفق عليه المجتهدون كاتفاق الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين على إمامة أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقتال مانعى الزكاة وما إلى ذلك.

وهذا النوع من الاجتهاد الجماعى هو الذى يسمى بـ (الإجماع).

الإجماع

والإجماع لغة التصميم أو جمع الكلمة على أمر.

وفى الاصطلاح: هو أن يتفق أهل الاجتهاد من علماء الأمة الإسلامية بعد رسول الله ﷺ على حكم شرعى.

حجية الإجماع:

ويرى جمهور العلماء أن الإجماع حجة شرعية ويجب العمل به ومما يدل على حجية الإجماع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾(١).

ومصادر الإجماع أمران:

الأول: القياس وذلك بأن يقيس المجتهد ما لا نص فيه على ما فيه نص.

والثانى: رعاية المصلحة كما حدث عندما تحرج أبو بكر فى جمع القرآن قائلا: أفعل ما لم يفعل رسول الله ﷺ، فقال عمر: إنه أمر لا ضرر فيه بل فيه الخير.

(١) سورة النساء ١١٥.

القياس

والقيـاس لغة التقدير.وفى الاصطلاح هو أن يشـارك أمر لا نص فيه أمرا آخر فيه نص فى علة الحكم وإلحاقه به وتلاحظ أن القياس يشتمل على أركان أربعة:

الأول: المقيس وهو الذى يراد إلحاقه بغيره.

الثانى: المقيس عليه وهو الذى ورد نص على حكمه.

الثالث: الحكم وهو ما اشتمل عليه النص.

الرابع: العلة وهى التى يبنى الحكم على أساسها ومثال القياس تحريم غير الخمر من كل ما فيه علتها من السـكر وغيبة العقل فالخمر ورد النص القرآنى بشـأنها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾[1].

وغيرها من نبيذ الشعير أو التمر وغير ذلك من المشروبات والمطعومات والحبوب الحديثة كل ذلك يقاس على الخمر.

ومن أدلة القياس:

قولـه تعـالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾[2].

فنهى عن قربان النساء فى المحيض لعلة هى الأذى والضرر فقد ذكر الحكم بعلته مشيرا إلى أنه حيث وجدت العلة وجد الحكم وهناك بعض الآيات التى فيها القياس كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3].

ومن السـنة ما روى أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت: (إن أمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها؟ قال ﷺ: نعم حجى عنها أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا حق الله فالله أحق بالوفاء).

(١) سورة المائدة ٩٠.

(٢) سورة البقرة ٢٢٢.

(٣) سورة آل عمران ٥٩.

أركان الإسلام

١- شهادة أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمدا رسول الله.
٢- الصلاة.
٣- الزكاة.
٤- الصيام.
٥- الحج.

الشهادتان
شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله

تمثل الشهاداتان الدعامة الأولى فى الإسلام، والأساس الذى تقوم عليه سائر الأركان الأخرى، فشهادة أن لا إله إلا الله هى العروة الوثقى التى شهد بها الله وملائكته وأولوا العلم قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾[1] فهذه الشهادة تتضمن كمال العقيدة الإسلامية فى جانب الله سبحانه وتعالى وأنه الخالق والمدبر وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾[2].

وأما الشهادة برسالة سيدنا محمد ﷺ فتتضمن التصديق بكل ما جاء به من ربه فتشمل التصديق بأنه رسول الله والتصديق بملائكة الله وكتبه ورسله كما قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾[3].

وقد ثبتت رسالة الرسول ﷺ وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾[4] وأن دعوته عامة قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[5].

والمراد بالشهادتين النطق بهما والتصديق بما يشتملان عليه والاعتقاد الراسخ بوحدانية الله تعالى وأنه لا شريك له وتنزيهه سبحانه عن صفات الحوادث من وجود الولد والوالد أو غير ذلك من كل ما لا يليق بكماله كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ

---

(١) سورة آل عمران ١٨.
(٢) سورة الكهف ١١٠.
(٣) سورة البقرة ٢٨٥.
(٤) سورة الأحزاب ٤٠.
(٥) سورة سبأ ٢٨.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾[1] كما أن الشهادة تعنى كذلك بما تدل عليه أن الله حى قيوم قادر على كل شىء لا تأخذه سنة ولا نوم عليم بكل شىء. ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾[2] .

والشهادة برسالة الرسول تحتوى ذخيرة الرسالات وكمال الفضائل وتمام الدين، قال تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا)

وقد وضح الرسول ﷺ دعائم الإسلام فى حديثه الجامع الذى رواه البخارى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان).

وكلمة الشهادة يطلق عليها كلمة الإخلاص أو كلمة التوحيد وذلك لأن فيها إقرارا بوحدانية الله تعالى وتصديقا به وبما جاء به رسوله، ولأن فيها اتجاها لله وحده لا شريك له، فالعبادة خالصة والدين خالص لله قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[3] وقال تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾[4].

وقد كان شعار الرسول ﷺ بالنسبة لصلته بالله: قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين.

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ: قال: (من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راضى) رواه ابن ماجه والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

□□□

(١) سورة الإخلاص ١-٤.

(٢) سورة البقرة ٢٥٥..

(٣) سورة الزمر ٢.

(٤) سورة الزمر ١١.

الصلاة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾.

هـذه هـى الدعامة الثانية من دعائم الإسـلام (الصلاة) هى عبـادة بدنية فرضت على المسلمين خمس مرات فى اليوم والليلة: صلاة الصبح وصلاة الظهر، وصلاة العصر، وصلاة المغرب، وصلاة العشاء.

والصلاة لغة، الدعاء وشـرعا أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم بشـروط مخصوصـة والصلاة عماد الدين من أقامهـا فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين. وقد اشـتملت الصلاة على جميع مظاهر التعظيم والأدب الرفيع والخشوع لله تعالى، ولذا كانت الصلاة صلة بين العبد وربه وكان العبد أقرب ما يكون إلى ربه فى حال الصلاة وهو ساجد.

ومن أقام الصلاة وحافظ عليها محافظة تامة فلم يخل بشـرط من شـروطها أو حكم من أحكامها، وأداها فى أوقاتها كاملة الخشـوع والخضوع كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، قال صلى الله عليه وسلم: (ما من امرىء تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة وذلك الدهر كله، رواه مسلم.

ويتضـح لنا سمو مكانة هـذه الفريضة ومنزلتها الهامة عند الله سـبحانه وتعالى حيث فرضت فى السـماء فقد اسـتدعى الحبيب حبيبه وعرج به إلى السـماوات حتى كان فى حضرته القدسية ليخاطبه مشافهة بهذا الأمر الهام وبتلك الفريضة المحبوبة (الصلاة).

فمنزلة الصلاة من الدين كمنزلة الرأس من الجسد فلا دين لمن لا صلاة له.

روى الطبرانى فى الأوسط والصغير: عن ابن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: لا إيمان لمن لا أمانة له ولا صلاة لمن لا طهور له ولا دين لمن لا صلاة له إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد.

وقد اهتم الكتاب والسنة بأمر الصلاة والتحذير من تركها فقد أمر الله تعالى بها رسوله: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ كمـا جعلها أسـاسـا أصيلا من أسـس التقـوى تأتى مرتبتها بعد الإيمان بالغيب مباشـرة، قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ ويجعلها النبى ﷺ الفاصل بين المسلم والكافر فيقول

فيما رواه مسلم: (بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة) فليس غريبا أن يقول بعض الأئمة بكفر تاركها ويقول آخرون بفسقه ويخشى عليه ترك الإيمان.

قال عليه الصلاة والسلام: فى حديث الإسراء (فانطلقت فمررت على ملك وأمامه آدمى، وبيد الملك صخرة يضرب بها هامة الآدمى فيقع دماغه جانبا، وتقع الصخرة جانبا ولما سأل عن ذلك قيل له: أولئك الذين كانوا ينامون عن صلاة العشاء الآخرة ويصلون الصلوات لغير مواقيتها فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار).

إذن فللصلاة أهميتها البالغة ومكانتها التى لا تطاولها مكانة فهى أول ما يسأل عنه العبد ويحاسب عليه يوم القيامة بل إنها الميزان الصحيح الذى توزن به سائر الأعمال فحيث كانت الصلاة صالحة ومقبولة صلح سائر العمل، وحيث كانت غير صالحة فسد سائر العمل ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ وتكف صاحبها عن الشرور وتسمو به حيث الرضا والكمال، أما من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له لأنه لم يستكمل عبادتها ولم تكن إقامته لها صالحة ومستقيمة وقد وضح الرسول صلوات الله وسلامه عليه حقيقة الصلاة كميزان للأعمال: عن عبد الله بن قرط رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله) رواه الطبرانى فى الأوسط.

وعلامة الصلاة الصالحة المقبولة أن يؤديها صاحبها متواضعا فيها لعظمة ربه الكبير ولم يستطل على أحد من خلق الله فهو ينتظم فى صفوف الطائعين غير مُصّرٍ على معصيته، وإنما يحيا فى ذكر الله ويتعاطف مع عباد الله ولقد جاء فى حديث يرويه النبى ﷺ عن ربه سبحانه وتعالى: «إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ولم يستطل على خلقى ولم يبت مصرا على معصيتى وقطع النهار فى ذكرى ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ورحم المصاب».

وتتضح ثمرة الصلاة المقبولة بنهيها صاحبها عن الآثام، وتكفيرها للخطايا فبالصلاة تتزكى الروح ويتطهر القلب من غفلات الهوى وأدران الخطايا قال عليه الصلاة والسلام: «أرأيتم لو أن نهرا على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات فهل يبقى على بدنه من درنه شىء؟ قالوا: لا، قال: كذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»، فهى إذا طهارة للإنسان وبراءة من الذنوب وإطفاء لما يحترق به الإنسان من المعاصى يتضح

هذا مما رواه ابن مسعود: «تحترقون فإذا صليتم الصبح غسلتها ثم تحترقون فإذا صليتم الظهر غسلتها، ثم تحترقون فإذا صليتم العصر غسلتها ثم تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها ثم تحترقون فإذا صليتم العشاء غسلتها ثم تنامون فلا تكتب عليكم حتى تستيقظوا» ويروى عن سلمان الفارسى أنه كان مع النبى صلى الله عليه وسلم تحت شجرة فأخذ منها غصنا يابسا فهزه حتى تحات ورقة ثم قال: يا سلمان ألا تسألنى لم أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله؟ قال: إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما تحات هذا الورق إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين، وللصلاة أثرها الإيجابى فى حياة المؤمن فهى لقاء روحى خصب يقف فيه بين يدى الرحمن الرحيم فى مناجاة عذبة يتلقى شحنات روحية تدخله فى رحاب الرضا والقبول، قال تعالى فى الحديث القدسى: قسمت الصلاة بينى وبين عبدى قسمين ولعبدى ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال عز وجل: حمدنى عبدى، فإذا قال. الرحمن الرحيم، قال الله: أثنى على عبدى، فإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجدنى عبدى، فإذا قال: إياك نستعين، قال الله: هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾. قال الله. هذا لعبدى ولعبدى ما سأل.

والصلاة مع هذا كله نظافة للبدن والثوب والمكان ورياضة للجسم والروح والعقل فهى إذا قوة روحية وبدنية وخلقية.

أليست – بهذا كله – جديرة بأن تفرض من فوق سبع سماوات بلى إنها لجديرة أن تفرض فى الليلة المباركة ليلة الإسراء والمعراج فهى عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين.

ومن ثمرات الصلاة التى يجنيها المؤمن أن فيها متنفسا للمتعبين والمنكوبين، فإذا استعان الواحد منهم بالصبر والصلاة وجد الله تعالى معه، وقد نادى الله تعالى عباده المؤمنين: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1] ولقد كان النبى صلوات الله وسلامه عليه إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة فهى

(١) سورة البقرة ٤٥.

مرفأ الراحة والطمأنينة، ومنزل الأمن والسكينة، بها يتغلب الإنسان على نوازع الجبن والخوف ومواقف الهوى والخمول، ففيها مقاومة للجزع الذى يصيب بعض الناس وقت نزول الشر، وعلاج للنفوس المناعة للخير حين يكون: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾(١).

والمصلى لابد أن يكون فى صلاته مستحضرا كل أحاسيس الخشوع، لأنه إنما يقف بين يدى الحضرة الإلهية فى دائرة الرحمة والفيض الإلهى فلا ينبغى له أن يكون من المرائين أو الساهين فإن هؤلاء قد توعدهم ربهم على عدم إخلاصهم فى صلاتهم، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾(٢).

ويحث الإسلام مقيم الصلاة بالانتظام فى سلك المجتمع وألا يعيش فى عزلة عن الناس، فأمر بأداء الصلاة فى جماعة وجعلها أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة بل إن الرسول ﷺ هم أن يحرق على قوم بيوتهم لأنهم يتخلفون عن الجماعات.

روى مسلم عن ابن مسعود قال: من سره أن يلقى الله غدا مسلما فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن فإن الله تعالى شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى وإنهن من سنن الهدى وإنكم لو صليتم فى بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف فى بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحط عنه بها سيئة ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها – أى صلاة الجماعة – إلا منافق معلوم النفاق «ولقد كان الرجل يؤتى به يتهادى بين الرجلين يسندانه لمرضه حتى يقام فى الصف».

وفى رحلة الإسراء والمعراج وضح الله تعالى لرسوله ﷺ مغبة أمر الذى تتثاقل رأسه عن الصلاة، فقد مر صلوات الله وسلامه عليه على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر، وكلما رضخت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شىء، فقال. ما هذا يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة، بل إنه قد أدى الصلاة على كيفية خاصة قبل أن تفرض إماما بالنبيين، وفى هذا ما يدل على عظمة هذه الفريضة وعظمة الرسول ﷺ، ففى

---

(١) سورة المعارج١٩ : ٢٣.

(٢) سورة الماعون ٤ : ٧.

رواية ابن مسعود: ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين ما بين قائم وراكع وساجد، ثم أذن مؤذن فأقيمت الصلاة فقمنا صفوفا ننتظر من يؤمنا، فأخذ بيدى جبريل فقدمنى فصليت بهم.

وفى رواية أبى أمامة عند الطبرانى، ثم أقيمت الصلاة فتدافعلوا حتى قدموا محمد ﷺ.

إذا فمكانة هذه الفريضة مكانة جليلة فهى معراج إلى الله يعبر بها المؤمن الحدود الدنيا ويستشرف فى سمو روحى الأجواء الإلهية ويجتاز طبقات البعد عن الله فيقترب من رحابه ويأنس فى مرافىء الرحمة والسلام.

ويقول الإمام القشيرى، سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رضي الله عنه يقول إن نبينا عليه السلام أتى للأمة بالمعراج على التحقيق فإن الصلاة لنا بمنزلة المعراج وقد كان المعراج له عليه السلام ثلاث منازل من الحرم إلى المسجد الأقصى ثم من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى، ثم منها إلى قاب قوسين أو أدنى، فكذلك لنا الصلاة ثلاث منازل القيام ثم الركوع ثم السجود وهو نهاية القرب، قال الله تعالى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾[1].

❑❑❑

(١) سورة العلق ١٩.

التعريف بالزكاة

الزكاة فى اللغة: تطلق بمعنى النماء أى الزيادة، يقال: زكا الزرع إذا نما وزاد، وقد سميت بذلك، لما يترتب عليها من زيادة المال وزيادة البركة فيه وزيادة الثواب والأجر لمن يؤديها.

وسميت صدقة. لأنها دليل لتصديق صاحبها وصحة إيمانه كما قال ﷺ: «... والصدقة برهان» كما تطلق الزكاة بمعنى التطهير، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾ بمعنى طهرها.

والزكاة فى الشرع: هى دفع جزء من المال لمن يستحقه بشروط معينة أو هى كما يرى الحنابلة: حق واجب فى مال مخصوص لطائفة مخصوصة فى وقت مخصوص.

والزكاة من دعائم الإسلام، وركن من أركانه، وفرض عين على كل من اجتمعت فيه شروطها، وفرضت فى السنة الثانية من الهجرة، ويدل عليها القرآن والسنة والإجماع، واتفقت الأمة على فرضيتها حتى صارت معلومة من الدين بالضرورة وقد جعلها الإسلام مع شهادة التوحيد وإقامة الصلاة دليلا على إسلام صاحبها وأنه يستحق الأخوة الإسلامية الصادقة فى الدين، قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾(1) وقال: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾.

لهذا فإن من جحد الزكاة كان كافرا، ومن منعها كان فاسقا، وقد قاتل أبو بكر رضي الله عنه ما نعى الزكاة، روى البخارى بسنده أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: لما توفى رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر رضى الله عنه وكفر من كفر من العرب فقال عمر رضي الله عنه كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله، فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال. والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، وقال عمر رضي الله عنه فوالله ما هو إلا أن شرح الله صدر أبى بكر رضي الله عنه فعرفت أنه الحق.

---

(1) سورة التوبة ١١.

ولقد فاوت الإسلام بين المقادير الواجبة، وجعلها مختلفة باختلاف السعى والتحصيل، فما كان منها سهل الحصول لاعناء فيه فقد أوجب الإسلام فيه الخمس وهذا فى المعدن والركاز - وهو عبارة عن الكنوز التى يصادفها الإنسان فى الأرض مدفونة من زمن قديم والمعدن مثل الحديد والذهب والنحاس فمتى حصل على شىء من ذلك وجب فيه الخمس مباشرة دون اعتبار الحول.

أما ما يكون الحصول عليه بمشقة فوق ذلك كالزروع والثمار فقد أوجب العشر فيما سقى منها بغير كلفة أو عناء كأن تسقى بالأنهار أو الغيم أو السيول الجارية دون آلة أو معاناة وأما ما كان يسقى منها بمعالجة وآلة أو دابة أو غير ذلك فأوجب فيه نصف العشر.

وما كان النماء فيه متوقفا على العمل المستمر من صاحب المال والكلفة أكثر من الزروع والثمار فقد أوجب فيه ربع العشر وذلك فى النقد وعروض التجارة.

وفى الزكاة امتحان لنفس المسلم يبرهن بدفعها على صدق إيمانه وصحة عقيدته، قال حجة الإسلام الغزالى - فى الإحياء - : وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن فى المال حقوقا سوى الزكاة كالنخعى والشعبى وعطاء ومجاهد، قال الشعبى - بعد أن قيل له - هل فى المال حق سوى الزكاة؟ قال: نعم أما سمعت قوله عز وجل: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1] الآية واستدلوا بقوله عز وجل: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[2] ويقول تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾[3] وزعموا أن ذلك غير منسوخ بآية الزكاة بل هو داخل فى حق المسلم على المسلم، ومعناه أنه يجب على الموسر إذا وجد محتاجا أن يزيل حاجته فضلا عن مال الزكاة.

وفى الزكاة تطهير لنفس المسلم المزكى من أفة الشح والبخل فإنه من المهلكات، وقال ﷺ: «ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾[4] فإذا ما تعود المسلم بذل المال، وقهر النفس على مفارقته أصبح ذلك عادة وبهذا تطهر الزكاة صاحبها من البخل المهلك.

كما أن فيها تطهيرا للمال وتزكية له فتكون فيه، البركة وينمو ويحفظ من الأفات والتلف

---

(١) سورة البقرة ١٧٧.

(٢) سورة البقرة ٣.

(٣) سورة البقرة ٢٥٤.

(٤) سورة الحشر ٩.

قال ﷺ: «حصنوا أموالكم بالزكاة». فتطهير المال إذا فيه تحصين له وحفظ من التلف وما ذلك الجزء الذى يخرجه المزكى إلا حق لأصحابه المحتاجين وتعبير القرآن الكريم عنه بأنه حق يشير إلى أنه ليس منحة أو عطية أو تفضلا وإنما هو حق، قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾(٢).

أما المالكون أصحاب المال فهم مستخلفون فيه قال تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾(٣).

وفى الزكاة أيضا تطهير لنفس الفقير أو المحتاج الذى تدفع إليه، وذلك بتطهيرها من آفة الحقد والكراهية، فالزكاة كما هى رابطة بين العبد وربه فهى كذلك رابطة بين الإنسان وأخيه الإنسان تتم بها معانى التواد والتراحم والتعاطف، قال الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾(٤).

ويجب أن تكون الزكاة خالصة من شوائب الرياء، فيدفعها المسلم ابتغاء وجه ربه، حتى ينال الجزاء الوافر وتكون مقبولة، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾(٥)، كما يجب أن تكون الزكاة خالصة لوجه الله فيدفعها المسلم مخلصا فيها بعيدا عن المن والأذ ى حتى يكون له الأجر الكامل عليها قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾(٦).

والزكاة عبادة مالية يتمثل فيها شكر الله تعالى على نعمة المال كما أن الصلاة عبادة بدنية يتمثل فيها شكر الله تعالى على نعمة البدن.

❑❑❑

(١) سورة الذاريات ١٩.
(٢) سورة المعارج ٢٤: ٢٥.
(٣) سورة الحديد ٧.
(٤) سورة التوبة ١٠٣.
(٥) سورة الليل ١٤: ٢١.
(٦) سورة البقرة ٢٦٢.

مصارف الزكاة

لقد حدد الله تعالى الجهات التى تصرف فيها الزكاة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[1].

وأول مصارف الزكاة: الفقراء والفقير من له أدنى شىء.

والثانى: المساكين والمسكين من لا شىء له وقيل: بالعكس.

وهذان النوعان هم أكثر الأنواع وجودا، وقل أن يخلو منهم مجتمع من المجتمعات، ولكن ليس معنى هذا أن الإسلام يشجع على البطالة وعدم الكسب اعتمادا على مال الزكاة كما يفعله بعض المحترفين من المتسولين القادرين إنما حرم الإسلام الصدقة على القادر الذى يكون سليم الأعضاء قوى البنية متمكنا من العمل ولذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مِّرة سوى» – أى قوى سليم الأعضاء – رواه أبو داود والترمذى.

نعم قد يكون قويا فى الظاهر إلا أنه غير مكتسب أو عجز عن العمل فعندئذ يقوم المجتمع الإسلامى بحاجاته، وقد جاء رجلان إلى النبى ﷺ فى حجة الوداع وهو يقسم الصدقة، فسألاه منها، فرفع فيهما البصر وخفضه، فرآهما جلدين قويين فقال: "إن شئتما أعطيتكما، ولاحظ فيها لغنى ولا لقوى مكتسب، رواه النسائى وأبو داود.

والصنف الثالث: هم العاملون عليها: وهم الذين يقومون بجمع الزكاة ممن وجبت عليهم، وكان هذا النظام موجودا فى صدر الإسلام الأول، فكان العاملون يأخذون جزاء عملهم من مال الزكاة إلا أن هذا النوع غير موجود ولكن حكمه باق ويمكن تنفيذه إذا عاد نظام جمع الزكاة ويعين لهذا العمل بعض الناس.

والنوع الرابع: المؤلفة قلوبهم، وهم الذين دخلوا الإسلام ولكن إيمانهم ضعيف، ويخشى عليهم أن يرتدوا عن الإسلام فهؤلاء يعطون لتأليف قلوبهم وتثبيتهم على الدين، كما يمكن أيضا أن يصرف هذا السهم فى عصرنا الحاضر لنشر الدعوة إلى الإسلام.

---

(١) سورة التوبة ٦٠.

والنوع الخامس: «وفى الرقاب» أى فى العتق وتحرير رقاب الأرقاء فعلى المسلمين أن يعطوهم من مال الزكاة لإعانتهم على التحرر، أو لشراء بعض الرقاب لعتقها، أو لإعانة من يحتاج منهم إلى الإعانة من المكاتبين حتى يستطيعوا الوفاء بأقساطهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾(١).

والنوع السادس: الغارمون، وهم الذين لحقتهم ديون بسبب إصلاح ذات البين أو تعطل بعض أعمال هامة لهم كان فيها نفع للأمة كالعمل التجارى أو الصناعى مثلا، وتعذر عليهم الوفاء بتلك الديون بشرط ألا تكون فى معصية الله أو بسبب فساد أخلاقهم وإلا فلا يعطون منها.

والنوع السابع: فى سبيل الله، وهو يتضمن الجهاد، وإعداد العدة وتجهيز الجيوش، ويدخل تحت كلمة فى سبيل الله أيضا بناء المساجد وإصلاحها، وبناء المدارس، وبناء المستشفيات وغير ذلك من المنافع العامة التى تكون خالصة لله وفى سبيل الله.

النوع الثامن: ابن السبيل، وهو الذى انقطع فى سفره عن بلده وأصبح بعيدا وغريبا واحتاج إلى المال ليتم مهمته ويرجع إلى بلده ويلاحظ فى الآية الكريمة التى بينت مصارف الزكاة أن دائرة الاستحقاق فيها على نوعين:

الأول: نوع يعطى الزكاة فينفقها على حسب ما يراه وهم الفقراء والمساكين والعاملون عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمون وابن السبيل.

والثانى: فى المصالح العامة التى يستفيد بها الناس وهى المذكورة فى قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾(٢)، ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾(٣).

هذه هى مصارف الزكاة، ومن حق المتصدق أن يدفع صدقته إلى كل واحد منهم، وأن يقتصر على صنف منهم، قال العلامة أبو السعود: لأن اللام - أى فى قوله «إنما الصدقات للفقراء» - لبيان أنهم مصارف لا تخرج عنهم لا لإثبات الاستحقاق وقد روى ذلك عن عمر وابن عباس وحذيفة رضى الله عنهم وعند الشافعى لا يجوز إلا أن يصرف إلى ثلاثة من تلك الأصناف.

❑❑❑

---

(١) سورة النور٣٣.

(٢) سورة التوبة ٦٠.

(٣) سورة التوبة ٦٠.

الصيام

الصيام هو أحد أركان الإسلام التى يقوم بها، ويبنى عليها: وقد فرضه الله تعالى على المؤمنين من هذه الأمة، كما فرضه على من قبلها من الأمم فالصوم عبادة قديمة لم تخل أمة من الأمم من افتراضها، وكان لكل أمة صوم.

فمن أنواع الصوم السابقة: صوم بعض المتصوفة لجميع أيام العمر رغبة فى مزيد من الثواب، ومثل هذا صوم بعض الرهبان.

ومن أنواع الصيام: الصيام عن الكلام. وعرف هذا النوع عند اليهود ومن ذلك: ما حكاه الله تعالى عن مريم عليها السلام ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[1].

ومن أنواعه كذلك: الصيام عن جميع الأعمال أو أغلبها، كما هو عند البوذيين واليهود.

ومنه: صوم بعض الهنود الذين يجعلون الأرض وطاء لهم. وما إلى ذلك من صفات الامتناع والإمساك التى تعددت عند كل قوم على حسب صومهم.

والناظر إلى فريضة الصيام فى الإسلام يرى أنها أخذت وضعا يختلف عما كان عليه غير المسلمين، وجاءت وسطا بين الأنواع الأخرى. فلا هى امتناع دائم يشق على المسلمين القيام به، ولا هى امتناع قصير، لا يترك كبير أثر فى النفوس إنها وسط بين أمور، لا إفراط فيها ولا تفريط مما يدل على سماحة الإسلام ويسره، ودقة تشريعه وحكمته.

حكم الصوم:

وقد فرض الصيام على المسلمين لحكمة جليلة، هى تحصيل تقوى الله تعالى، كما أشار سبحانه فى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2]، وبهذا تتحدد لنا الحكمة من الصيام وهى الوصول إلى التقوى وهى اتقاء عذاب الله، باتقاء كل معصية فيمتثل الإنسان ما أمر الله به ويجتنب ما نهى عنه.

---

(1) سورة مريم، آية ٢٦.

(2) سورة البقرة، آية ١٨٣.

وفى قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾[1] فى هذه الآية بيان لسبب اختصاص شهر رمضان بالصوم دون سواه من بقية شهور السنة وذلك أن الله سبحان وتعالى قد أشار إلى الحكمة فى اختيار شهر رمضان بالصوم: بأنه الشهر المبارك الذى ميزه الله تعالى بنزول أكبر نعمة فيه وهى القرآن الكريم الذى يهدى للتى هى أقوم. وفيه شفاء لما فى الصدور ورحمة للمؤمنين، وتطهير للقلوب، وتزكية للأرواح، وتلك نعمة من أعظم النعم وأجلها، يجب على من اهتدوا به أن يشكروا صاحبها بالغدو والآصال بل إن الشكر على النعمة ينبغى أن يكون من جنسها فى المضمون وفى النتيجة فكان (الصوم) الذى يعمل على تطهير القلوب والسمو بالأرواح.

وإذا علمنا أن الصوم فرض على الأمم السابقة، فهل فرض على المسلمين صوم قبل رمضان؟

ذهب الجمهور وبعض الشافعية، إلى أنه لم يجب صوم على المسلمين قط قبل رمضان.

ومن أدلة الشافعية: حديث معاوية مرفوعا «لم يكتب الله عليكم صيامه»[2] وذهب الحنفية إلى أن أول ما فرض صوم يوم عاشوراء، فلما نزل رمضان نسخ، واستدلوا بظاهر حديثى ابن عمر، وعائشة، عن ابن عمرو رضى الله عنهما قال: صام النبى ﷺ عاشوراء وأمر بصيامه فلما فرض رمضان ترك وكان عبد الله لا يصومه إلا أن يوافق صومه، رواه البخارى، وعن عائشة رضى الله عنها، أن قريشا كانت تصوم يوم عاشوراء فى الجاهلية ثم أمررسول الله ﷺ بصيامه حتى فرض رمضان، وقال رسول الله ﷺ: من شاء فليصمه ومن شاء أفطره، رواه البخارى ومسلم.

وقد كان رسول الله ﷺ يصوم يوم عاشوراء فى مكة قبل الهجرة، وبعد أن هاجر إلى المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فصامه وأمر بصيامه، وهذا إنما كان عن وحى أوتواتر أو اجتهاد لا بمجرد أخبار الآحاد، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قدم النبى ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: فأنا أحق بموسى منكم فصامه

(١) سورة البقرة، آية ١٨٥.

(٢) رواه البخارى وتمام الحديث "هذا يوم عاشوراء ولم يكتب الله عليكم صيامه وأنا صائم فمن شاء فليصم ومن شاء فليفطر".

وأمر بصيامه، رواه البخارى وفى رواية مسلم: هذا يوم أنجى الله فيه موسى وقومه وغرق فرعون وقومه.

وقد فرض صوم رمضان فى شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة فنسخ وجوب صوم يوم عاشوراء على مذهب أبى حنيفة، وعلى مذهب غيره نسخ تأكيد استحباب صومه.

وقد ثبت وجوب صوم رمضان، بالقرآن والسنة، عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن عمر ابن الخطاب رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان "وفى هذه الرواية تقدم الحج على الصوم، وذلك لأن فى الحج بذلا للمشقة والمال، وفى بعض الروايات قدم الصوم على الحج، وذلك لأن الصوم أعم وجوبا من الحج.

والصوم معلوم من الدين بالضرورة فمن جحد وجوبه، فهو كافر إلا إذا كان قريب عهد بالإسلام أو نشأ بعيدا عن أهل العلم.

تعريف الصيام لغة وشرعا:

يطلق الصيام فى اللغة على الإمساك مطلقا، سواء كان إمساكا عن طعام وشراب أو قول أو عمل ومن ذلك قوله تعالى: ﴿نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ﴾[1]، بمعنى: الإمساك عن الكلام والسكوت عنه.

وشرعا: هو إمساك عن المفطر على وجه مخصوص مع النية، وعرفه البعض بأنه الإمساك عن شهوتى البطن والفرج يوما كاملا من طلوع الفجر الثانى إلى غروب الشمس بنية مخصوصة ويجب صوم رمضان، إما بإكمال شعبان ثلاثين يوما، وإما برؤية الهلال ليلة الثلاثين، لقول الرسول ﷺ «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما».

(١) سورة مريم ٢٦.

منزلة شهر رمضان

قـال الإمام مسـلم رحمه الله تعالى: حدثنا يحيى بن أيـوب وقتيبة وابن حجر "قالوا: حدثنا إسماعيل وهو ابن جعفر عن أبى سـهيل عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم قال: إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين.

وحدثنى حرملة بن يحيى أخبرنا ابن وهب أخبرنى يونس عن ابن شهاب عن ابن أبى أنس أن أباه حدثه أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا كان رمضان فتحت أبواب الرحمة وغلقت جهنم وسلسلت الشياطين.

اللغة

(إذا جـاء رمضـان) والرواية الثانيـة: إذا كان رمضان، وفى روايـة أخرى. إذا دخل رمضـان، والمعنى: إذا ابتدأ رمضـان، وسمى برمضان لأنه وافق مجيئه فى الرمضاء، وهى شـدة الحر، فسمى بذلك، وقيل لأنه يرمض الذنوب، أى يحرقها بمعنى يمحوها. وقيل: لأن القلوب تحترق فيه من الموعظة.

(فتحـت أبواب الجنة) روى بتخفيف التاء فى «فتحت» وبتشـديدها والتشـديد يفيد الكثرة والمبالغة فى الفتح وكذلك بالنسـبة إلى قوله تعالى: «وغلقت..» بالتشـديد، «وصفدت الشياطين» أى شدت بالأصفاد وهى الأغلال، وهى بمعنى سلسلت، والصفد بفتح الفاء الغل بضم الغين أى القيد.

المعنى

يبرز هذا الحديث أسمى ما يتطلع إليه المسلم فى الدنيا والآخرة ويوضح أجل خصائص الشهر المبارك، وأعظم علامات الخير فيه، وهى تفتح أبواب الجنة، وإغلاق أبواب النار، وتسلسل الشياطين.

وقد احتل شـهر رمضان المبارك هذه المنزله الجليلة فى الإسلام، لما نزل فيه من القرآن الكريم الذى يهدى للتى هى أقوم، وغير ذلك من الفيوضات الكثيرة.

فهو شهر الخير والبر، والفضل والرحمة، لو يعلم الناس ما فى رمضان من الخير لتمنوا

أن تكون السنة كلها رمضان، ويمكن أن نوجز مقومات الخير فى شهر رمضان، والتى من أجلها كانت له هذه المنزلة الجليلة فيما يأتى:-

١- ما تحدث عنه القرآن، بقوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾(١) فنزول القرآن هو أكبر نعمة وأعظم مقومات الخير التى جعلت للشهر مكانة عظيمة من بين الشهور، وكما قال تعالى ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾(٢) وما ورد كذلك فى السنة الشريفة: إن صحف إبراهيم أنزلت فى أول ليلة من رمضان، وأن التوراه أنزلت لست مضين منه، وأن الإنجيل أنزل لثلاث عشرة خلت منه.

٢- ما تميزت به فريضة الصيام من خصائص جعلتها عبادة روحية صافية من أى رياء، لأنها سر بين العبد وربه لا يطلع عليه أحد سواه، ولأن فيها امتناعا عن ملاذ النفس وشهواتها، وكبحا لجماحها.

٣- ما أفاءه الله تعالى على الصائمين من فضل، حيث ينزل عليهم الرحمة، ويستجيب لهم الدعاء، ويضاعف الأجر، من تقرب فى رمضان بخصله من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى، سبعين فريضة فيما سواه.

فإذا كانت هذه هى منزلة الشهر العظيم، فلا غرابة أن يحيطه الله تعالى بمكرمات عظيمة، بتقدير وإجلال، يليق بمنزلته كتفتح أبواب الجنة وإغلاق أبواب النار، وتصفيد الشياطين.

ويحتمل فى قوله: تفتح أبواب الجنة ثلاثة وجوه:

أولا: أن نحمل اللفظ على ظاهره وحقيقتة، وتكون هذه الأمور المذكورة وهى تفتح أبواب الجنة، وتغليق أبواب جهنم وتصفيد الشياطين، علامة لدخول الشهر، وتكريما له وتعظيما، وفى حبس الشياطين فى رمضان كف لهم عن إيذاء المؤمنين.

ثانيا: أن نحمل التعبير على المجاز، فيكون فتح أبواب الجنة إشارة إلى كثرة الثواب، وغلق أبواب النار إشارة إلى العفو، وتصفيد الشياطين إشارة إلى قلة إغوائهم، فكأن حالهم أشبهت حال المصفدين ويكون هذا التصفيد خاصا بناس دون ناس، وعن أمور دون أمور،

---

(١) سورة البقرة ١٨٥.

(٢) سورة البقرة ١٨٥ (سبق تخريجه).

ويؤيـد هذا الروايةالثانية (وفتحت أبواب الرحمة)، وجاء فى حديث آخر: «صفدت مردة الشياطين».

ثالثـا: أن تكون العبارة من قبيل المجاز المرسـل، فأطلق «المسـبب» وهو تفتح أبواب الجنة وغلق أبواب النار وتصفيد الشـياطين، وأراد «السـبب» وهـو فعل الطاعات، وعمل الخيرات، والكف عن المعاصى والسيئات.

وإنمـا يستشـعر كل هذا من صام صوما حقيقيا، وقد وضحت السـنة الشـريفة سمات الصوم الحقيقى المقبول، وعلى ضوئها يمكن للصائم أن يستشف ما عليه عبادته، ويتعرف علـى ثمرة طاعته، وذلك بما تثمره عبادة الصيام من الكف عن المعاصى، وغرس الفضائل، والتحلـى بمكارم الأخلاق والصدق فى القول والعمل. أما إن ظهر كذب أو زور أو غير ذلك مـن الرذائل فنتيجة الصوم هـى ما أخبر عنها النبى ﷺ فى قوله: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه».

وقال بعض العلماء: يحتمل أن يكون المراد أن الشـياطين هم مسـترقوا السمع منهم وأن تسلسـلهم يقـع فى ليالى رمضـان دون أيامه، لأنهم كانوا منعوا فى زمـن نزول القرآن من استراق السمع فزيدوا التسلسل مبالغة فى الحفظ.

وقال الطيبى: فائدة فتح أبواب السماء، توقيف الملائكة على استحماد فعل الصائمين، وأنه من الله بمنزلة عظيمة. أهـ. من الفتح.

ويسـتدل بقول الرسـول ﷺ (إذا جاء رمضان...) على أنه يجوز أن يقال (رمضان) من غير ذكر الشهر بدون كراهة، وقد ذكر الإمام النووى ثلاثة مذاهب فى هذه المسألة:

الأول: ما ذهب إليه أصحاب مالك بأنه لا يقال: رمضان دون تخصيصه ووصفه بشهر، وزعموا أن رمضان اسم من أسماء الله تعالى فلا يطلق على غير الله إلا إذا كان مقيدا، ولعلهم استندوا فى ذلك على الحديث الذى رواه أبو معشر نجيح المدنى عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة مرفوعا (لا تقولوا رمضان فإن رمضان اسم من أسماء الله ولكن قولوا شهر رمضان).

وهـذا الحديث أخرجه ابن عـدى فى الكامل، وضعفه بأبى معشـر قال البيهقى: قد روى عن أبى معشر عن محمد بن كعب وهو أشبه، وروى عن مجاهد والحسن من طريقين ضعيفين.

الثانى: ما ذهب إليه ابن الباقلانى وكثير من الشافعية إلى أنه إن كان هناك قرينة تصرفه

إلى الشــهر فلا يكره، وإلا فيكره، قالوا: فيقال، صمنا رمضان، قمنا رمضان، أفضل الأشهر، ويندب طلب ليلة القدر فى أواخر رمضان وأشباه ذلك، ولاكراهة فى هذا كله، وإنما يكره أن يقال: جاء رمضان ودخل رمضان، وحضر رمضان وأحب رمضان ونحو ذلك. أهـ.

الثالث: ما ذهب إليه البخارى والمحققون، وهو أن لا كراهة فى إطلاق رمضان بقرينة وبغير قرينة، قال النووى: وهذا المذهب هو الصواب والمذهبان الأولان فاسدان، لأن الكراهة إنمــا تثبت بنهى الشــرع ولم يثبت فيه نهى وقولهم: أنه اســم مــن أسماء الله تعالى ليس بصحيح، ولم يصح فيه شىء وإن كان قد جاء فيه أثر ضعيف، وأسماء الله توقيفيه لا تطلق إلا بدليل صحيح، ولو ثبت أنه اســم لم يلزم منه كراهة، وهذا الحديث المذكور فى الباب صريح فى الرد على المذهبين، ولهذا الحديث نظائر كثيرة فى الصحيح.

وقد ترجم البخارى فى صحيحه ولهذا الحديث بقوله: باب هل يقال رمضان أو شــهر رمضان، وأشــار بهذه الترجمة إلى حديث أبى معشر السابق وهو ضعيف، واحتج البخارى على جواز المسألة بعدة أحاديث، وقد ترجم النسائى لذلك أيضا فقال: باب الرخصة فى أن يقال لشــهر رمضان رمضان ثم أورد حديث أبــى بكرة مرفوعا: (لا يقولن أحدكم صمت رمضان ولا قمته كله) وحديث ابن عباس (عمرة فى رمضان تعدل حجة).

قال الحافظ ابن حجر: وقد يتمسك للتقييد بالشهر بورود القرآن به حيث قال: (شهر رمضان) مع احتمال أن يكون حذف لفظ شهر من الأحاديث من تصرف الرواة، وكأن هذا هو السر فى عدم جزم المصنف بالحكم أ.هـ.

ومما ســبق يتبين لنا أن البخارى والنسائى، يقولان بجواز اللفظين جميعا، والذى نراه هو أن لكل أسلوب مفهوما، يتضح به المراد، وليس معنى ورود (رمضان) فى القرآن مضافا إليــه (شــهر) أن هذا لازم له فى جميــع الأحوال، فإن لكل مقام مقــالا، فالمقام فى الآية الشــريفة يقتضى التعبير هكذا (شــهر رمضان) وذلك لأن المراد بيان ما أنزل فى بعض أيام الشــهر وهو القرآن الكريم كما هو مستفاد من قوله تعالى ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾(1)، فورد رمضان فى الآية بالتقييد بشــهر، لأنه أراد هنا الظرفية، ولم يجر مجرى المفعولات،

(1) سورة البقرة ١٨٥ (سبق تخريجه).

وزال العمـوم عـن اللفظ، فالمراد هو بيان ما أنزل فيـه وفى بعض أيامه ولياليه، وليس فى جميع أوقات الشهر فلذا كان أبلغ تعبير أن يقيده بما يفيد ذلك بقوله (شهر رمضان) وأما فى سـائر الأحاديث النبوية التى يراد بها العمل فى الشـهر كله وصيام جميع الشهر فإن التعبير فيها جاء بدون التقييد بكلمة شهر كما فى الحديث الذى معنا وغيره من الأحاديث الأخرى، ومن ذلك:

١- ما رواه أبو داود والترمذى وابن ماجة وأحمد من حديث جابر:

(من صام رمضان ثم أتبعه ستا من شوال فذاك صيام الدهر).

٢- وعن ثوبان عن رسـول الله ﷺ أنه قال (من صام رمضان وسـتة أيام بعد الفطر كان تمام السنة من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها رواه ابن ماجه.

فنرى أنه قال فى الحديث الأول ، وفى الثانى (من صام رمضان) ولم يقل (شهر) وذلك للدلالة على استغراق جميع أيام الشهر بالصوم. وقال سيبويه: «ومما لا يكون العمل إلا فيه كله المحرم وصفر يريد أن الاسـم العلم يتنـاول اللفظ كله، وذلك إذاقلت الأحد أو الإثنين فإن قلت يوم الأحد أو شهر المحرم كان ظرفا، ولم يجرى مجرى المفعولات، وزال العموم من اللفظ لأنك تريد فى الشـهر وفى اليوم، ولذلك قال عليه السـلام: من صام رمضان ولم يقل شهر رمضان ليكون العمل فيه كله» أ.هـ.

ما يؤخذ من الحديث

١- جواز أن يقال رمضان دون ذكر الشهر بلا كراهة.

٢- بيان ما لشـهر رمضان من منزلة جليلة فى الإسـلام، وأنه أفضل الشـهور عند الله تعالى.

٣- استدل بعض العلماء بهذا الحديث على أن الجنة فى السماء وفى هذا نظر.

٤- مضاعفـة الأجـر وتنزل الرحمة من الله تعـالى إلى عباده الصائمـين المخلصين فى صيامهم.

٥- حث الهمم واستنهاضها إلى اغتنام الأوقات المباركة بكثرة العبادة وصنائع المعروف، والزيادة من الطاعة، لا سيما فى رمضان.

فريضة الحج

الحج، لغة: القصد. وشرعا: قصد البيت الحرام للنسك، أو هو كما عرفة البعض: أعمال مخصوصة تؤدى فى زمن مخصوص ومكان على وجه مخصوص.

وهو فرض على كل مسلم ومسلمة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[1] وهو واجب مرة واحدة فى العمر، لقول الرسول ﷺ: «يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا فقال رجل: أكل عام يارسول الله» فسكت ﷺ حتى قالها ثلاثا، فقال عليه الصلاة والسلام: لو قلت نعم لوجبت ولم استطعتم».

وشروط وجوبه: الإسلام، والبلوغ، والعقل، والحرية والاستطاعة وأركانه: الإحرام، والطواف، والسعى بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفه.

أما العمرة: لغة فهى، الزيارة. وشرعا: زيارة البيت الحرام على وجه مخصوص. قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لله﴾[2] ويشترط فى العمرة ما سبق فى الحج من الشروط، وأما أركانها فهى: الإحرام، والطواف والسعى بين الصفا والمروة، وقيل إن العمرة واجبة. وقيل: أنها مستحبة، وللإمام الشافعى فيها قولان: أصحهما الوجوب. ولا يجب الحج ولا العمرة إلا مرة فى العمر، إلا إذا نذر المسلم فيجب عليه الوفاء بنذره، وقال الشافعى وأبو يوسف وجماعه: أن الحج يجب على التراخى إلا أن ينتهى إلى حال يظن فواته لو أخره، وقال أبو حنيفة ومالك وغيرهما: يجب على الفور. وقد دل على وجوب الحج الكتاب والسنة والإجماع وأصبح معلوما من الدين بالضرورة فمنكره كافر خارج عن الإسلام.

وهو من أفضل العبادات، وأعظم الأعمال تقربا إلى الله كما جاء فى الحديث.

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: سئل النبى ﷺ أى الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال: جهاد فى سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال حج مبرور.

وهكذا يبين الرسول صلوات الله وسلامه عليه منزلة هذه الفريضة الجليلة بين الأعمال الفاضلة فى الدين، فلئن كان أفضل الأعمال، «الإيمان بالله ورسوله» – وهو يعنى التصديق

(١) سورة آل عمران ٩٧.

(٢) سورة البقرة ١٩٦.

والعمل بكل ما أمر به الله ورسوله ومن بينها الجهاد والحج - فإنه حين يسأل عما يلى ذلك من عمل فى الأفضلية يشير إلى الجهاد فى سبيل الله ثم الحج المبرور، وذلك لمزيد العناية بهما، ولتوجيه النظر إلى ما ينطوى عليه كل من الجهاد والحج من فضل عظيم، ومثوبة كريمة وجزاء أوفى عند الله سبحانه وتعالى.

والحج المبرور. هو المقبول الذى وفيت أحكامه ووقع على الوجه الأكمل فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فيه. قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١)...

وفى الحج المبرور صفاء روحى، وبراءة من الذنوب صغيرها وكبيرها لأن المسلم فى أدائه لتلك المناسك يتخلص من شهوته، ويتجرد من زينته ويهرول إلى ساحة الغفران والرضوان بنفس طاهرة، وقلب منيب، يتوب إلى ربه التوبة النصوح، وتشرق فى روحه ومضات الإيمان الصادق فيستشعر اللذة الروحية، ويحس الأمل فى الله، والرجاء العظيم فى جناب رحمته.

فحين ترتعش شفتاه الضارعتان على دقات قلبه الطاهر الخفاق فينتفض كل إحساس فيه بمناجاة عذبة، ونداء دافىء يصيح ملء روحه: «لبيك اللهم لبيك...» مستجيبا لله ولرسوله إذا دعاه لما يحييه حين يصل المسلم إلى تلك الدرجة من الصفاء الروحى لا يبقى على جسده إثم ولا على حياته غشاوة لأنه انغمس فى طهارة قدسية وتجاوبت أصداء روحه مع نسمات الإيمان الكامل فكأنه مولود جديد لا ذنب يدنسه ولا عيب يلتصق به.

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».

وفريضة الحج هى إحدى أركان الإسلام الخمسة تجب على من توافرت له شروط الاستطاعة قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾(٢) ويشترط لتحقيق هذه الاستطاعة: أن يكون المسلم سليم البدن غير مريض وألا تكون لديه موانع

---

(١) سورة البقرة ١٩٧.

(٢) سورة آل عمران ٩٧.

حسية وأن يكون ما لديه من مال فائضا عن حاجته الأصلية وأن يكون ما يحج به من مال فائضا عن نفقه من تلزمه نفقتهم مدة ذهابه وايابه ويشترط أيضا أن يكون الطريق مأمونا.

واشترط الأحناف والحنابلة زيادة على ذلك: - بالنسبة للمرأة - أن يكون معها زوج أو محرم بالغ عاقل إذا كان بينها وبين مكة مسافة سفر لما رواه أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم إلا معها ذو محرم»، ويقول ابن عباس: سمعت رسول الله يقول: لا يخلو رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم ولا تسافر امرأة إلا ومعها ذو محرم فقام رجل فقال: يا رسول الله إنى كنت فى غزوة كذا وانطلقت امرأتى حاجة، فقال النبى: انطلق فاحجج مع امرأتك وحيث تتحقق هذه الشروط فليس للمسلم أن يتراخى عن أداء هذه الفريضة الجليلة بل يجب عليه أن يعجل بها لأنه لا يضمن عمره، قال عليه الصلاة والسلام «من أراد الحج فليعجل فإنه قد يمرض المريض وتضل الضالة وتعرض الحاجة».

وإذا ما استجاب المسلمون المستطيعون لنداء ربهم سبحانه وهبوا لأداء هذه الفريضة راحلين إلى بقاعها المقدسة تاركين الأهل والديار والوطن والأحباب فهم وفود الله سبحانه وزواره وأضيافه يسيرون فى عنايته، وتحدوهم رعايته، وهم فى حمى الله وأمانة فى حلهم وترحالهم، مضمون على الله أن قبض واحد منهم أن يدخله جنته، وأن رده إلى اهله رده بأجر وغنيمة.

روى ابن جريح عن جابر عن النبى ﷺ قال: «هذا البيت دعامة الإسلام فمن خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضمونا على الله إن قبضه أن يدخله الجنة، وإن رده إلى أهله رده بأجر وغنيم».

وهؤلاء الوفود الأبرار جعل الله سبحانه دعاءهم مقبولا لا يرد واستغفارهم يصعد إلى السماء فيغفر الله لهم، ويتوب عليهم وتتجاوب مع أصداء أنفاسهم الطاهرة المبرورة ومضات الإشراق والطهر فى عالم القداسة والنور، وتتفتح لدعواتهم البريئة، وضراعاتهم المنيبة أبواب السماء، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: «الحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم» كما جعل سبحانه وتعالى جزاء الحج المقبول جنته عن بريده أن النبى ﷺ قال: الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، وقال عليه الصلاة والسلام: «العمرة للعمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

والبيت الحرام الذى يقصده المسلمون استجابة لنداء ربهم سبحانه هو أول بيت وضع للناس كما حدده القرآن الكريم زمانا، ومكة كما حدده أيضا مكانا ففيه من عظيم الآيات والهدى ما يجعل من دخله آمنا مطمئنا وتيسيرا من الله لعباده لم يوجبه إلا على المستطيع كما لم يجعله إلا مرة واحدة فى العمر بها يسقط عن المكلف الفرض أما من جحد الحج ولم يؤمن بفريضة تلك الفريضة فإن الله غنى عنه قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ (١).

ولمكانة هذا البيت العظيمة ناط الله سبحانه بزواره عزا فى الدنيا والأخرة فإنه يمهد لأسباب الرزق ويفتح أبواب الخير فينفى الفقر والذنوب عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحجة المبرورة ثواب إلاالجنة» رواه الترمذى وصححه، كما جعل النفقة فى الحج مثل النفقة فى سبيل الله عن بريدة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «النفقة فى الحج كالنفقة فى سبيل الله الدرهم بسبعمائة ضعف».

ولتلك الأسرار الكريمة، والمثوبة البالغة التى تتضمنها تلك الفريضة كان على المسلم أن يتحرى بكل دقة وأمانة المال الحلال الذى لا تشوبه أدنى شائبة، أو أقل شبهة حتى يكون مقبولا.

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: إذا خرج الحاج حاجا بنفقة طيبة ووضع رجله فى الغرز فنادى لبيك اللهم لبيك ناداه مناد من السماء لبيك وسعديك زادك حلال، وراحلتك حلال، وحجك مبرور غير مأذور، وإذا خرج بالنفقة الخبيثة فوضع رجله فى الغرز فنادى لبيك ناداه مناد من السماء لا لبيك ولا سعديك زادك حرام ونفقتك حرام، وحجك مأزور غير مأجور.

ومن خلال مناسك الحج تنبثق الروحانيات الكريمة التى تشع فى قلب المؤمن معانى سامية، وإشراقات تبعث الراحة والأمان، والطمأنينة والانشراح أنه من أول لحظة يحرم

(١) سورة آل عمران ٩٦: ٩٧.

فيها ويصيح ملبيا ربه سبحانه فقد دخل فى المناجاة الطيبة واستجاب بتلبيته إلى نداء ربه سبحانه إذ يقول: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾[1] فهو يتجرد من لباس الدنيا وزينة الحياة وزخرفها، ويلبس ازاره، ورداءه وينتظم تلك الصفوف من المسلمين الذين ارتدوا جميعا هذا اللباس الواحد فى هيئة بيضاء واحدة لا فرق بين غنى أو فقير ولا بين رئيس أو مرؤوس فالكل سواء ضمتهم وحدة دينهم فى مظهرهم وفى مخبرهم وفى صرخات قلوبهم وهى تجأر بنداء واحد فى وقت واحد لرب واحد سبحانه وتعالى...

وفى طوافهم بالبيت يتشبهون بالملائكة المقربين الحافين حول العرش الطائفين برحمته ومغفرته، فهو حين يستلم البيت، يبايع خالقه سبحانه واضعا يده على الحجر الأسود فهو يمين الله يصافح بها خلقه ليفى حق الوفاء بتلك المبايعة متعلقا بأستار الكعبة تعلق المذنب بثياب من أذنب إليه راجيا منه العفو طالبا منه الرحمة والرضوان.

وفى السعى بين الصفا والمروة تذكر وتدبر لما ينعم به الله سبحانه على عباده من فرج ويسر بعد ضيق وعسر، كما أنه رجاء مخلص يصعده صاحبه راجيا أن ينظر إليه ربه بعين الرحمة، والسعى هذا من شعائر الله قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[2].

قال الإمام الغزالى رحمه الله: وأما السعى بين الصفا والمروة فى فناء البيت فإنه يضاهى تردد العبد بفناء دار الملك جائيا وذاهبا مرة بعد أخرى إظهارا للخلوص فى الخدمة ورجاء للملاحظة بعين الرحمة، كالذى دخل على الملك وخرج وهو لا يدرى ما الذى يقضى به الملك فى حقه من قبول أو رد فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى يرجو أن يرحم فى الثانية إن لم يرحمه فى الأولى وليتذكر عند تردده بين الصفا والمروة تردده بين كفتى الميزان فى عرصات القيامة، وليمثل الصفا بكفة الحسنات، والمروة بكفه السيئات وليتذكر تردده بين الكفتين ناظرا إلى الرجحان والنقصان، مترددا بين العذاب والغفران.

أما الوقوف بعرفة فهو أهم ركن فى هذه الفريضة كما يقول الرسول ﷺ «الحج عرفة»، وفى يوم عرفة تخنس كل وساوس الشيطان وتنطفئ هواجسه، فيرى حقيرا ومدحورا. وقال ﷺ: «مارئى الشيطان فى يوم أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه يوم عرفة».

---

(١) سورة الحج ٢٧.

(٢) سورة البقرة ١٥٨.

إنه لموقف ضخم فى يوم مشهود يقف فيه الناس جميعا لا فرق بين إنسان وإنسان مظهر واحد ومكان واحد يدعون ربا واحدا، فينتظم دعاؤهم الحار المصعد إلى السماء فى نشيد روحى عذب يهتفون به فى نفس واحد ملبين ومستغرقين، وراجين رحمة ربهم فيستشعرونها تتنزل عليهم من عند ربهم سبحان وتعالى. ويتذوقون حلاوة المناجاة فى طهارة وبراءة حيث ارتفعت الأصوات، على اختلاف اللغات ترتعش بالرجاء وتتماوج بالأمل، وإنهم ليتذكرون فى هذا الموقف موقفهم يوم القيامة واجتماعهم بأنبيائهم وأئمتهم واقتفاء كل أمة بنبيها طمعا فى الشفاعة ورغبة فى فضل الله رب العالمين.

وأما رمى الجمار ففيه طرح لوساوس النفس ومقاومة منتصرة لنزعات الشيطان رجما له وإرغام أنفه بامتثال أمر الله تلبية وتعظيما استجابة لأمره دون أن يكون للنفس أو العقل حظ فيه ويقول أبو حامد الغزالى فى هذا الموقف: القصد منه الإنقياد للأمر إظهارًا للرق والعبودية وإنتهاضًا لمجرد الامتثال من غير حظ العقل والنفس فيه، ويبين أيضا القصد برمى الجمار قائلا: التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى فى ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة أو يفتنه بمعصية فأمره الله عز وجل أن يرمية بالحجارة طردا وقطعا لأمله.

وهكذا نرى أن ما تعطيه مناسك الحج من قيم، وما تنطوى عليه من أسرار وروحانيات نرى كل هذا جديرا بالوقوف عليه والاعتبار به والسير على هديه القويم، فإن هذا اللقاء الروحى الكبير يشكل أعظم مؤتمر إسلامى عالمى أعضائه وفود الله وزواره، وضيوف بيته وعماره، وحق على المزور أن يكرم زائره وفيه تتلاقى القلوب على المحجة البيضاء، يشع صفاء الاخوة بينها فتعمل جاهدة لصالح العباد والبلاد «ليشهدوا منافع لهم...» فى أمر دينهم وفى أمر دنياهم، وفى هذا تحقيق للنصر الكبير على عدو البلاد بالجهاد فى سبيل الله، وتحقيقا للنصر الأكبر على النفس بجهادها، والنصر فى كل أبعاده، وشتى مجاليه لايكون إلا انبثاقا من الدين، وانطلاقا من الإيمان، الصادق الذى به يتحقق وعد الله سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.(١)

□□□

---

(١) سورة الروم ٤٧.

التعليم ومحو الأمية

إن حـــق العلـــم والمعرفة والقراءة من أهم الحقوق التى صانها الإســـلام ودعا إلى تحقيقها للفرد والأسرة المجتمع.

وفى ســـبيل تحقيق طلب العلم، قاوم الإسلام الجهل والأمية، ودعا إلى العلم والمعرفة، وكانـــت أولى آيات القرآن نزولا تدعـــوا إلى القراءة والعلم والمعرفة، فى هذا البحث توضيح لدعوة الإسلام إلى العلم ومقاومتة للجهل والأمية.

❑❑❑

الدعوة إلى حق التعليم

التعليم فى الإسلام حق من حقوق المسلم، بل فريضة أوجبها الإسلام ففى الحديث الشريف يقول الرسول ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(١).

وفى ظل الإسلام تبوأت الإنسانية مكانتها المرموقة، وعاشت وليس على عينها عصابة، ولا فى قلبها غشاوة، وانطلقت فى حياة خصبة ممتلئة، وفى مجالات رحبة تشرق بالنور والأمل غير متعثرة الخطى، ولا حائرة الفكر لأن لديها من رصيدها الإيمانى علما ثابت الأصول ومعرفة نابضة بالخير والإصلاح فأمنت الإنسانية المؤمنه من مزالق الضلالة، ومن تخبطات الجهالة، يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتى»(٢).

وقد نزل القرآن الكريم بقوانين السعادة والإصلاح والرشد والفلاح فأطفأ لهيب الجهل والظلم وأضاء الحياة بالعلم والعدل وبث فيها روح الإخلاص والحق، وكانت أولى آيات التنزيل دعوة صريحة للعلم والمعرفة على أساس الإيمان الحق بالله الذى علم الإنسان ما لم يعلم قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾(٣).

❑❑❑

(١) رواه ابن ماجة وابن عبد البر فى العلم عن أنس.

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك.

(٣) سورة العلق من ١: ٥.

التحصيل والتبليغ

وليس العلم حصيلة يحتويها العالم ولا يطالع بها أمته أو يرشد بها الناس وإنما العلم فى الإسلام فريضة إذا قال بها المسلم وتعلم فلابد أن ينفع غيره، ويعلم الناس وينذر قومه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1] ولقد حث الرسول صلوات الله وسلامه عليه على طلب العلم وتبليغه عن ابن شهاب قال: قال حميدو عبدالرحمن سمعت معاوية خطيبا يقول: سمعت النبى ﷺ يقول: «من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وإنما أنا قاسم والله يعطى ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله»[2].

فالعلم فى الإسلام أخذ وعطاء وتعلم وتعليم ودعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن. قال سبحانه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[3]، وهو أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وتقوية للإيمان والاستمرار فى مواصلة مسار الإصلاح والخير. وبهذا تتبوأ الأمة الإسلامية مكانتها كخير أمة أخرجت للناس قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[4].

وتحصيل العلم ونشره لابد فيه من الأمانة العلمية فى الحفاظ عليه خاصة إذا كان فى الدين سواء كان من القرآن أو من السنة الشريفة فلابد من الأمانة والضبط والإتقان فى التبليغ فيؤدى المسلم ويبلغ كما سمع، قال ﷺ: «نضر الله عبدا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[5].

---

(١) سورة التوبة ١٢٢.

(٢) رواه أحمد وغيره.

(٣) سورة النحل ١٢٥.

(٤) سورة آل عمران ١١٠.

(٥) رواه أحمد والترمذى.

ولقد اصطفى الله سبحانه وتعالى رسوله عليه الصلاة والسلام ليبلغ الرسالة الإلهية للناس جميعا، ويتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ولذا فقد أعده إعدادا كاملا فرباه بعنايته وكلأه برعايته وعصمه من الناس وعلمه ما لم يكن يعلم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (١).

المنهج المثالى

وقد نهج رسول الله صلوات الله وسلامه عليه منهجا مثاليا يجب أن يقتدى به كل الموجهين والمعلمين والمصلحين إنه منهج القرآن الذى يأخذ الناس بالتدريج فى التوجيه والتعليم وفى انتزاع الشر والباطل وفى العمل على غرس أصول الحق والهدى.

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه يفتى كل سائل ومستفسر فيما يسأل عنه فى كل زمان وفى كل مكان حسبما اتفق فى الحل والترحال وفى المسجد وهو المكان المتعارف عليه. كما كان يتبع معهم أسمى الطرق فى التعليم فيتخولهم بالموعظة كراهة السآمة عليهم ويتوخى مخاطبتهم بلغاتهم ولهجاتهم وعلى قدر عقولهم متواضعا معهم حليما كريما، وبلغ من حرصه الشديد على تحصيل ما يقوله وحفظه وفهمه أن كان يكرر القول ثلاثا حتى يفهم عنه وأحيانا يطرح المسألة على المسلمين ليختبر أفهامهم وذلك أدعى لتثبيت المعلومات فى العقول وجذب انتباههم ويتحرى أن يكون التدريس والتعليم فى الوقت المناسب وبما يتلائم مع العقول، وفى الظروف التى يتسنى للمسلمين أن يحضروا فيها وتكون عقولهم واعية ويقظة.

القدوة فى التعليم

وإذا كان لابد للعلم والتعليم من أساس ثابت يتمثل فى الكتاب والسنة ولابد مع التحصيل من تبليغ، ولابد من أمانة. ثم لابد من منهج سليم يتبعه العلماء والمتعلمون حتى

(١) سورة النساء ١١٣.

يثمر العلم. ويؤتى التعليم ثماره ونتائجه فإنه يبقى أمر هام هو القدوة فى التعليم والقدوة الحسنة إنما تتمثل فى أبهى صورها وفى أسمى مظاهرها فى الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فقد كان فى حلمه وعلمه وصبره وسعة صدره يسع الناس خلقه الكريم وسجاياه الحميدة مما جعل الناس يقبلون عليه ويستمعون إليه، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[1] . وقد وجه الله سبحانه وتعالى رسوله عليه الصلاة والسلام أن يدعوه : «رب زدنى علما». هذا هو موقف الرسول صلوات الله وسلامه عليه وهو القدوة الحسنة ولنا فيه الأسوة كما قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[2].

ومن ذلك نخلص إلى أن العلم لا يصل إلى نهايته أحد، ومهما بلغ العلماء فى علمهم والباحثون فى بحثهم فإن المجهول كثير، والغيب لا يعلمه إلا الله سبحانه... قال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[3].

وما دام الأمر كذلك فيجب على كل مشتغل بالعلم – تعلما او تعليما أن يكون لين الجانب متواضعا متحليا بمكارم الأخلاق وحسن المعاملة والمعاشرة والألفة حتى يصل إلى طلبته ويحقق جوهر الرسالة التى نيطت به، فللعلم منزلته العالية فى الإسلام وبمقدار هذه المنزلة تسمو مكانة العالم والمتعلم قال سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[4]... فبالعلم يصل الإنسان إلى مراقبة الله وخشيته، وبالعلم تتحقق أعظم غاية هى أساس العبادات والمعاملات وصلات الناس بربهم وبعالمهم الذى يعيشون فيه. تلك العقيدة الصحيحة التى تتمثل فى توحيد الله سبحانه وتعالى أنها الحقيقة القرآنية الكبرى التى شهد بها رب العالمين وشهد بها الملائكة المقربون وشهد بها أولو العلم، قال الله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[5] . وعلى

---

(١) سورة آل عمران ١٥٩.

(٢) سورة الأحزاب ٢١.

(٣) سورة النمل ٦٥.

(٤) سورة فاطر ٢٨.

(٥) سورة آل عمران ١٨.

هذا النحو تتضح لنا أهمية العلم كهدف من أهداف الرسالة الإلهية، قال جل شأنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾(2)، وللقدوة أثرها البالغ وأهميتها وفاعليتها فى المتعلمين والشباب خاصة إذا طبقت المبادئ التى يتعلموها تطبيقا بين الجميع فلم تعد مجرد نظريات جامدة أو أفكار هامدة لا حركة تدفعها ولا حيوية تنبعث منها فلابد من التطبيق العملى فإذا تحدثنا عن الصلاة قمنا إليها مسرعين وإذا تحدثنا عن الزكاة كنا أسبق المتصدقين، وإذا تحدثنا عن مكارم الأخلاق تعاملنا بها مع الجميع وبذلك تشرق البيئة الإسلامية بمثاليات، لها واقع، ولها أصالة وعمل.

وحدة التعليم الدينى

وإذا كانت مناهج التعليم تختلف فى بعض البلاد الإسلامية عن بعضها فى بعض المواد والدروس والمناهج فلا يصح أبدا أن تختلف فى التعليم الدينى ودراسة المواد الإسلامية فالإسلام هو الإسلام فى عقيدته وعباداته ومعاملاته وسائر أحكامه وآدابه فإذا ما اتفقت سائر البلاد الإسلامية على خطة موحدة فى التعليم الدينى ودراسة مراحل التعليم من المرحلة الأولى إلى نهايتها فىالمدارس والمعاهد والجامعات بحيث تكون المواد أساسية وأصيلة فى جميع الأقطار الإسلامية وبكمية كافية، وتأليف مستساغ يلبى حاجة المجتمع ويكون فى مستوى الفهم والإدارك لدى كل مرحلة على حساب ما يناسبها كان هذا اعظم نجاح... ويكون هناك لقاءات ورحلات علمية بين علماء البلاد الإسلامية للتعرف على مشاكل الحياة وما يحتاجه شباب الأمة ووضع العلاج لكل مشكلة أو أنحراف وإعطاء القدوة الحسنة بما يشمل عليه السنة الشريفة من قول وفعل وبما يزخر به تاريخ سلفنا من نماذج رائعة على أن يقوم بجوار ذلك منهج تربوى تطبيقى يشارك فيه العالم والمتعلم والأستاذ والطالب والداعية والمدعو وهكذا حتى نستطيع إعداد شباب أمتنا

---

(1) سورة الجمعة ٢.

(2) سورة آل عمران ١٦٤.

المسلمة إعداد دينيا سليما، على أساس سليم وحتى لاندع شبابنا للتبعية والامتصاص والتقليل وبذلك يمكن مناهضة كل موجات التحلل السافر التى اجتاحت كثيرا من شباب أمتنا المسلمة ومن هنا نحقق ما ندبنا الله إليه من نصر دينه فيكون نصره الدائم لنا قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾(١) وإن العلم فى الإسلام ليس مجرد نظريات تعطى وليس أقوالا تحفظ فحسب وإنما هو تبليغ وتعليم وتطبيق وعمل.

ومن أجل ذلك فالويل كل الويل لمن كتم علما سئل عنه فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سئل عن علم علمه ثم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»(٢).

هذا إذا كان يعلم ما سئل عنه وكتم علمه. أما إذا كان لا يعلم فلا يصح أن يقول بهواه أو بما لا علم له به. وإنما يقول: الله أعلم، وهكذا كان سلفنا الصالح.

عن عبد الله بن مسعود قال(٣): «يا أيها الناس من علم شيئا يعلم فليقل به ومن لم فليقل الله أعلم فإن من العلم أن تقول لما لا تعلم: الله أعلم». قال الله تعالى لنبيه: ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴾(٤).

معادن الناس ومواقفهم من العلم

إن حاجة الإنسانية، إلى العلم والمعرفة، والتفقه فى الدين، لا تقل عن حاجتها إلى الطعام والشراب، إن لم تزد. فبدون العلم والمعرفة وبدون التفقة فى الدين تصبح حياة الناس جامدة هامدة – وتصبح ضالة الخطى حائرة القصد غائمة الهدف... فبالعلم تصل الحياة الإنسانية إلى صعيد المعرفة الرحب. وبالمعرفة يقف الأفراد والجماعات على أمور دينهم ودنياهم وما يسعدهم وينير لهم الطريق.

ومن هنا كانت رسالة العلماء والمفكرين والكتاب والباحثين هامة وخطيرة وكانت مهمة

(١) سورة محمد ٧.
(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذى.
(٣) متفق عليه.
(٤) سورة ص ٨٦.

الدوائـر العلميــة والجامعات والأكاديميات لهــا أثرها العظيم فى إثــراء الحياة بنور العلم والمعرفة، وفى اســتمرار عطائها، ونشــره ونقله إلى كل جوانب الحياة. وفى نشر نور العلم والمعرفــة وإرســال ضوئه إلى كل حياة الناس بعث للحياة وإحيــاء للعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا.

كتب عمربن عبد العزيز إلى أبى بكر بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فإنــى خفت دروس العلم وذهــاب العلماء ولا تقبل إلا حديث النبى ﷺ، ولتفشــوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا..

والناس معادن، ولهم مواقعهم من العلم، فمنهم العالم المعلم وهذا بمنزلة الأرض الطيبة التى شربت الماء فانتفعت فى نفسها وأنبتت فنفعت غيرها.

ومن الناس الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه غير أنه لم يعمل بنوافله أو لم يتفقه فيما جمع لكنه أداة لغيره. فهو بمنزلة الأرض التى يستقر فيها الماء فينتفع الناس به.

ومنهــم من يســمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغــيره، فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التى لا تقبل الماء أو تفسده على غيرها[1].

وعن هذه الأقســام تحدث الرســول صلوات الله وسلامه عليه فقال: «مثل ما بعثنى الله بــه من الهدى والعلم كمثــل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فنفع به الناس فشــربوا وســقوا وزرعوا. وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هى قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به»[2].

هــذا هو موقف الناس من العلم وما يمثله العلماء والمفكرون والكتاب والباحثون الذين لا يحبســون علمهم فى صدورهم ولا يضنون به على دنيا الناس. إنهم تعلموا وتفهموا وعلموا وفقهــوا فــكان مثلهم كما جاء فــى الحديث كمثل الأرض النقية الخصبــة التى قبلت الماء واستفادت منه فى نفسها، ونفعت غيرها به وأنبتت الكلأ والعشب الكثير.

وأما الثانية فأمســكت الماء فانتفع به الغير. وأما الثالثة: فلم يكن لها من حظ فى نفع

---

(١) فتح البارى جـ ١، ص ١٧٧.

(٢) رواه البخارى.

ذاتى، ولا نفع للغير.. ومثل الثالثة من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى جاء به رسول ﷺ، فواجب العلماء العمل أولا ثم تعليم الغير، ونشر العلم، فإن موقف طلاب العلم ورواد المعرفة أيضا يختلف من شخص لآخر ومن جماعة لآخرى فمنهم الجاد فى طريق العلم المقبل عليه ومنهم المستحى ومنهم غير الجاد ، وغير المقبل.

وتصور السنة المشرفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام نماذج طلاب العلم بين الإقبال والحياء والإعراض، ويتخذ رسول الله ﷺ من واقعة حدثت فى مجلسه فى المسجد توضيحا لذلك حين كان الناس معه يعلمهم ويوجههم فأقبل عليه ثلاثة نفر لكل واحد منهم مشربه ووجهته فاتخذ من هذا الموقف صورة لتوجيه المسلمين.

عن أبى واقد الليثى أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس فى المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد. قال: فوقفا على رسول الله ﷺ فأما أحدهما فرأى فرجة فى الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهبا... فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «الا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه»(١).

وهناك أمر هام يتعلق بالعلم والإفتاء . ينبغى أن يراعى جانبه كل مشتغل بالعلم أو متصدر للإفتاء وهو: ألا يقول فى كل شىء برأيه. بل عليه أن يسير على هدى الكتاب والسنة فى كل ما يقول، وألا يتجاسر على التفسير برأيه إذا سئل فى آية من القرآن الكريم مثلا، أو حكم من الأحكام، بل يقول فيما لا يعلم: الله أعلم.

عن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن عمر جلوسا وهو مضطجع بيننا فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن تركت فى المسجد رجلا يفسر برأيه هذه الآية: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾(٢)، فقال يأتى الناس يوم القيامة دخان فيأخذ الكفار، ويأخذ

(١) رواه البخارى.

(٢) سورة الدخان ١٠.

المؤمنــين منه كهيئة الــزكام فقال عبد الله وجلس وهو غضبان، يا أيها الناس اتقوا الله من علم منكم شيئا فليقل بما يعلم ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن علم أحدكم أن يقول فيمــا لا يعلم: الله أعلم. فإن الله عز وجل قال لنبيه ﷺ: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾(١) وبما أرســاه الإســلام من أسس أصيلة للعلم والتعليم والعمل قامت خير أمة أخرجت للناس، أمة ذات حضارة عريقة وتراث عظيم.

وقد أخذت الدنيا منها وتعلمت، وشــهد بذلــك كل مؤرخى الحضارات من الأوروبيين وغيرهــم. يقول«بريفولــت»: لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضــارة العربية على العالم الحديث ولكن ثماره كانت بطيئة النضج، إن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى إسبانيا لم تنهــض فــى عنفوانها إلا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء ســحب الظــلام، ولم يكــن العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوروبا الحياة بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإســلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية أ. هـ من كتاب (تجديد الفكر الدينى فى الإسلام، محمد إقبال، ترجمة الأستاذ عباس محمود) فما أحوج المجتمعات الإسلامية اليوم أن تمسك على تراثها وتعتز بأمجادها واعية لدورها ورسالتها، فلا تقف موقف الصمت مما يثار حول التراث الذى امتدت أثاره إلى أقصى المعمورة شــرقا وغربا بل تقف منه موقف الحارس والمســتزيد وتعمل على نشــر العلم والعمل به والنهوض بالأمة الإسلامية قدما إلى الإمام.

مقاومة الإسلام للجهل والأمية

الإســلام هو دين العلم والمعرفة فبالعلم يتعرف الناس على خالقهم ودينهم وأمور دنياهم وأخراهم. ولقد كانت أولى آيات الوحى الإلهى، التى صافحت قلب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه تدعو إلى العلم، وإلى القراءة، قال الله تعالى ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(٢).

(١) سورة ص ٨٦.

(٢) سورة القلم (١-٥).

وهـذه الآيـات الأولى الداعية إلى العلم والقراءة، تربط العلم من أول وهلة بالله سـبحانه وتعالى: فهى قراءة باسـم الله ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[1]، وما دام العلم والقراءة باسم الله ومرتبطـة بـه فهو علم نافع وقراءة مثمرة ومعرفة وراءها خير البشـرية كلها. ولما كان العلم طريقا لمعرفة الله والإيمان به، والعمل بشرعه وسبيلا لإسعاد البشرية وإصلاحها فإن الإسلام قد قاوم الجهل مقاومة كبيرة. ونّوه بالفارق الكبير بين أهل العلم وبين الذين لا يعلمون ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ويحـض الإسـلام على الخروج فى طلب العلم ونشره وتبليغه وتعليمه للناس قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[2].

لقد عرف سـلف أمتنا قيمـة العلم فأولوه عناية فائقة وقَـدّ رأو خطورة الجهل فراحوا يقاومونه بكل السـبل وفى شـتى المجالات فى الحل وفى الترحال وكانت لهم رحلاتهم العلمية التى نسـميها نحن اليوم – بلغة العصـر – البعثات التعليمية، ولئن كانت بعثاتنا اليوم تميزت بسـبل الراحة الكبيرة، وطرق المواصلات التى اختصرت المسـافات الشاسعة فإن رحلاتهم العلمية لم تكن لها هذه الوسائل المريحة، ومع هذا لو قسنا أعمالنا بأعمالهم وعلومنا بعلومهم فإنه لا يسعنا إلا أن نعترف بالتقصير، وأن نُقرّ بضعف الهمة وقلة الطموح.

إننا حين ننظر إلى وسـائل الحضارة الحديثة – فى المواصلات وفى سـفن الفضاء التى قربـت البعيد، ووفرت الزمـن، ونظرنا إلى وسـائلهم الأولية التى كانوا يتجشـمون فيها الصعاب ويعانون من وعثاء السـفر وشظف العيش لقلنا إن النتيجة الطبيعية أن نكون نحن أكثر إنتاجا وأغزر تحصيلا.

ولكن النتيجة بالعكس، وإذا نظرنا إلى دور العلم الحديثة، والمدارس والمعاهد والجامعات والأكاديميات، ونظرنا إلى مجالسـهم العلمية المتواضعة البسـيطة لقلنا إن المتوقع أن تكون أجيالنا كلها فى درجة عالية من العلم والمعرفة وليس بيننا واحد لا يعرف القراءة والكتابة ولكن الواقع غير ذلك. ثم إذا نظرنا إلى وسـائل الإعلام المتعددة، وإلى طرق التربية والتعليم

(١) سورة القلم١.

(٢) سورة التوبة، (١٣٢).

المختلفة وإلى الترجمات ودور الطباعة والنشر والتوزيع. لقلنا إن مؤلفاتنا أكثر وإن علومنا أغزر.. إذا ما الفارق الجوهرى بيننا وبينهم، وما السبب فى هذا الفارق الكبير؟ إن الفارق الحقيقى أنهم انطلقوا لتحصيل العلم وتبليغه من قاعدة الإيمان. ونظروا إليه على أنه دين. وأما نحن فقد نظرنا إليه أو نظر أغلبنا إليه على أنه سبيل للعيش والحياة أو المنصب والجاه وإذا ما وصل إلى نهاية مرحلة ما من مراحل التعليم ظن أنه قد أنهى رحلة تعليمة... نعم قد يترقى البعض إلى شهادة أعلى وقد يواصل البعض بحوثه وقراءاته، وكتاباته، ولكنها إذا قيست ببحوث وقراءات وكتابات سلفنا وجدنا أنها قليلة جدا. فأين أعمال الكثير منا بجوار عمل واحد منهم ممن كان يكتب فى اليوم الواحد أكثر من كراسة ويقرأ أكثر من كتاب ويظل دؤوبا على تحصيل العلم، حتى يترك لخلفه مئات الكتب والمراجع، التى لم يزل حتى يومنا هذا ألوف منها مخطوطة ومن حقق بعضها ونشره قلنا: أنه أسدى للعلم يدا كريمة وأخرج إلينا كنزا ثمينا.

وقد يقال: إنهم كانوا متفرغين للعلم والقراءة والكتابة، وأما نحن فقد شغلنا المعاش وسبل الحياة، ولكن الاعتراض على هذا، والرد عليه بديهى لأنهم ما كانوا يحصلون من علمهم وتعلمهم على أجور كما نحصل والمشتغلون منا بالعلم والتعلم والتعليم، الأغلبية الساحقة منهم إن لم يكن كلهم فجُلّهم متفرغ للعلم والتعلم والتعليم، فلم يبق إلا أن ننهض بما نهضوا به واضعين نصب أعيننا أن طلب العلم فريضة، وأن كتمان العلم جريمة كبرى وعاقبها أليم، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»(١).

وأن نعنى العناية الكبيرة بمن ينفرون إلينا لتلقى العلم وتحصيله وأن نستوصى خيرا بمن يهاجرون فى سبيل العلم.. ولقد كانت وصية رسول الله ﷺ بأهل العلم كبير وهامة. عن أبى هارون العبدى رضي الله عنه: قال: كنا نأتى أبا سعيد فيقول: مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الناس لكم تبع وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرضين، يتفقهون فى

(١) رواه أبو داود والترمذى.

الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا»[1] وإذا كان هذا شأن طلاب العلم فإن شأن العلماء عظيم وحسبهم قول الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[2] وحسبهم أنهم ورثة الأنبياء، ولقد قاوم الإسلام الجهل فى جميع أشكاله، فقاوم جهل الشرك والوثنية والضلال، بالتوحيد والعقيدة الصحيحة وقاوم جهالة التقليد فَنَعَى على أولئك الذين أسلموا عقولهم لغيرهم وتعصبوا لباطلهم، لأنه كان عليه آباؤهم وأجدادهم. وقد حكى القرآن ذلك ونعى عليهم جهلهم وعصبيتهم فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[3] وقاوم الإسلام جهل الناس بالقراءة والكتابة، وعمل على محو الأمية، وكان الرسول أول من وضع حجر الأساس فى محوها حيث جعل فداء بعض الأسرى الذين لا مال لهم أن يعلموا أولاد المسلمين القراءة والكتابة.

عن ابن عباس قال: كان ناس من الأسرى – يوم بدر – لم يكن لهم فداء فجعل رسول الله ﷺ أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة كما جعل الإسلام تعلم القرآن مهرا فى الزواج لمن ليس لديه مال فحين طلب بعض المسلمين من رسول الله ﷺ أن يزوجه امرأة. قال له رسول الله ﷺ: فهل عندك من شىء؟ قال: لا والله يا رسول الله فقال: اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئا؟ ثم رجع فقال ما وجدت شيئا. فقال رسول الله ﷺ: «انظر ولو خاتما من حديد»، فذهب ثم رجع فقال: «لا والله يارسول الله ولا خاتما من حديد ولكن هذا إزارى فلها نصفه» فقال رسول الله ﷺ ما تصنع بإزارك، إن لبسته لم يكن عليها منه شىء، وإن لبسته لم يكن عليك منه شىء، فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام فرآه رسول الله ﷺ موليا فأمر به فدعى فلما جاء قال: "ماذا معك من القرآن؟ قال معى سورة كذا وسورة كذا عددها

(١) رواه الترمذى وابن ماجه.

(٢) سورة فاطر ٢٨.

(٣) سورة المائدة ١٠٤.

فقال: «تقرؤهن عن ظهر قلبك» قال: نعم قال «اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن»[1].

إن القضاء على الجهل وإن محو الأمية ومضاعفة الجهود لخدمة العلم والثقافة الإسلامية لمن أهم ما ينبغى على المسلمين أن يوجهوا إليه عنايتهم،وأن يبذلوا أقصى ما فى الفكر الإسلامى والعمل على قيام أكبر نهضة علمية على أيدى المسلمين، وقد أولى الإسلام عنايته الكبرى واهتمامه البالغ بالعلم والثقافة ومحاربة الجهل والأمية، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ مر بمجلسين فى مسجده، أحد المجلسين يدعون الله، ويرغبون إليه والأخر يتعلمون الفقه ويعلمونه. فقال رسول الله ﷺ: كلا المجلسين خير. وأحدهما أفضل من الآخر، أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم وأما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل وإنما بعثت معلما ثم أقبل فجلس معهم. إن العلم نور، وإن العلم أقوى سلاح وهو سبيل الرقى والنهوض والسعادة.

الدعوة إلى تعليم المرأة

لقد أعطى الإسلام المرأة حقوقا كثيرة بعد أن كانت مهضومة الحق فى الجاهلية. لقد منحها الإسلام حقها فى الميراث وحقها فى التملك وحقها فى الصداق. وجعل لها أهليتها فى التعاقد وفى إجراء العقود من بيع أو شراء أو رهن أو هبة أو وصية... كما سوى الإسلام بين الرجل والمرأة قى شئون المسئولية والجزاء. والثواب والعقاب. بمعنى أن المرأة، التى تعمل صالحا وهى مؤمنة لها جزاؤها فى الدنيا وفى الأخرة كما قال الله جل شأنه: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2] ويقول سبحانه: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾[3].

وسوى الإسلام بينهما فى الحدود وفى سائر أنواع الجزاء والعقوبات ففى حد الزنا

---

(١) رواه مسلم.

(٢) سورة النحل ٩٧.

(٣) سورة النساء، (٣٢).

وتطبيقه على الرجال والنســاء. يقول الله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾[١]. وفى حد السرقة يأمر الإسلام بتطبيق قطع اليد للسارق رجلا كان أو امرأة:[٢].

وكما ســوى الإســلام بين الرجل والمرأة فى ذلك أعطى المرأة حسن التعلم والثقافة وأباح لها أن تتعلم العلم والأدب بل إنه يوجب عليها تعلم ما يتصل بأمور الدين لتقف على معرفة الأحكام ولتحســن القيام بالعبادات وسائر الوظائف فى هذه الحياة. وقد جاء فى الحديث طلب العلم فريضة على كل مسلم[٣]. وكلمة: «مسلم» تشمل الرجل والمرأة كما يقول العلماء.

ويقــول أبو قلابة: «أى رجل أعظم أجرا مــن رجل ينفق على عيال صغار يعفهم الله أو ينفعهم الله به ويغنيهم» وفى هذا ما يشــير إلى أهمية إعداد الأبناء بما ينفعهم ذكورا كانوا أم أناثا ولم يفرق الإســلام فيما منحه من حق «التعليم» للمرأة المســلمة بين أن تكون حرة أو امة. بل إن توجيهات الإســلام فيما يتصل بشــأن الأمة كانت أكيدة. عن أبى برده قال: قال رســول الله ﷺ «أيما رجل كانت عنده وليدة – أى جارية – فعلمها فأحســن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»[٤].

وبهذا رغب الإسلام فى تعليم المرأة وحث عليه ووضح ماله من أثر هام ومثوبة كريمة.

وإن العلم من الحقوق الأساسية التى لا غنى للحياة عنها بحال من الأحوال فإن شئون المجتمعات الإنســانية لا تنهض على المأكل والمشــرب والملبس والمســكن فحســب، فتلك حقــوق ماديــة، أما تلك الحقوق المعنوية والروحية فلها اهميتها فى تســيير الحياة وتنظيم تلــك الحقــوق المادية الأخرى، ولايتأتى ذلــك إلا بتثقيف القلب والــروح وتهذيب العقل وتعليمه، ولقد طبق رســول الله ﷺ مبدأ تعليم المرأة وتثقيفها بما كان يصنعه مع المسلمات من تخصيص يوم لهن يجلس فيه ومن تعليم أمهات المؤمنين.

روى البلاذرى فى «فتوح البلدان» إن الشفاء العدوية وهى سيدة من بنى عدى رهط

(١) سورة النور ٢.

(٢) سورة المائدة، (٣٨).

(٣) رواه بن ماجه.

(٤) رواه البخارى.

عمــر بن الخطاب كانت كاتبة فى الجاهلية، وكانت تعلم الفتيات. وإن حفصة بنت عمر أخذت عنها القراءة والكتابة قبل زواجها بالرسول عليه الصلاة والسلام. ولما تزوجها عليه الصلاة والسلام طلب إلى الشفاء العدوية أن تتابع تثقيفها وأن تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها أصل الكتابة. والعديد من الشواهد مما يدل على تعلم النساء وظهورهن فى علوم القرآن والحديث والفقه واللغة منذ عصر بنى أمية.

وذكر ابن خلكان أن السـيدة نفيسـة بنت الحسـن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسـن بن على ابن أبى طالب لها بمصر مجلس علم حضره الإمام الشـافعى نفسـه وسمع عليها فيه الحديـث. وروى ابن المقرى فى كتابه «نفح الطيـب» أنه كان لابن المطرف اللغوى جارية أخــذت عن مولاها النحو واللغة ولكنها فاقتــه فى ذلك وبرعت على الأخص فى العروض حتــى سميــت «بالعرضوية»، وإنها كانت تحفــظ عن ظهر قلب كتابــى «الكامل» للمبرد و«الأمالى» لأبى على القالى[1].

وإذا تقرر فى الإســلام للمرأة هذا الحق فإنه ينبغى أن ينظر إلى قضية تعليم المرأة نظرة عادلة ومثمرة بحيث لا يطغى تعلمها وحقها فيه وما أتاحه الإسلام لها على دورها كزوجة وعلــى دورهــا كأم فهذا هو دورهــا الأصيل وبين الأمومة والزوجية تكون رســالة المرأة فى الحياة وما تعليمها الذى منحها الإسلام لها كحق إلا مكمل وهادٍ لدورها ورسالتها. ثم إنه إلى جانب ذلك فحق التعليم محكوم بمبادئ الإســلام وآدابه وأخلاقه بمعنى أن المرأة التى تتلقى العلم يجب أن تكون بعيدة كل البعد عن اختلاطها بالرجال الأجانب محافظة على زيها الإسلامى وعلى احتشامها ووقارها وعفتها الأخلاقية.

ومن ناحية أخرى فإنه لا يقوم واجب على حساب آخر من واجبات الأمومة والزوجية... وهكذا كان النســاء فى صدر الإســلام فهذه أسماء بنت أبى بكر الصديق تقول «كنت أخدم الزبير – زوجها – خدمة البيت كله، وكنت أسوس فرسه وأعلفه واحتش له. وكنت أخرز الدلو وأســقى الماء وأحمل النوى على رأسى من أرض له على ثلثى فرسخ، وفى الحديث: ... والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها «رواه البخارى ومسلم» وإذا كان

(١) حقوق الإسلام، د. على عبد الواحد وافى.

الإسلام قد منح المرأة تلك الحقوق السابقة فإنه قد أكد واجبها كزوجة وواجبها كأم وسائر ما يجب أن تقوم به من تربية أبنائها. وكل ذلك فى حدود مارسمه الإسلام مما حدده فى الكتاب والسنة وفى تاريخ سلفنا بحيث لا تجرفها المدنية الحديثة إلى الخروج عن دائرتها التى رسمها لها الدين.

كما ينبغى أن ننبه إلى حكمة الإسـلام العالية فى التفريق بين المرأة والرجل فى بعض الأمـور والحقـوق وإن ذلك من صميم العدالة الإلهية اتسـاقا مع طبيعة كل من الجنسـين وخصائصـه وتكوينه ودوره فى الحيـاة، وذلك كحقها فى الميراث على النصف من نصيب الرجل وغير ذلك مما قررته الشريعة الإسلامية.

❑❑❑

الدعوة إلى حق الأمان

لا تقوم المجتمعات الآمنة إلا على أساس أصيل يتميز بقوته التى لا تؤثر فيها عواصف الحياة ولا رياح الفتنة، وإنما يدفع عن نفسه عاديات الزمن وأطماع الحاقدين والغزاة.

وهذا الأساس الأصيل الذى يتميز بتلك القوة ليس سلاحا ماديا يدافع به وليس بناء حديديا يقوى على الزمن والأيام، وإنما هو أساس روحى وأساس عقدى ألا وهو (الإيمان) إن أثر الإيمان بالله على حياة الأفراد والجماعات وعلى دنيا البشر عموما أثر دونه كل شىء. وكيف لا والإيمان يصنع الرجال الأقوياء والرجولة الصامدة المجاهدة ويفتح أبواب الخير والحق ويشيع بين الناس السلام والأمان. وبدونه مهما قوى البنيان فهو إلى انهيار وبدونه مهما كان السلاح فهو إلى خسران، وبدونه مهما قويت حياة المجتمع المادية فهى إلى خوف، وبالإيمان وحدة تكون الحياة الآمنة والمستقرة والهادئة إلا أن الأمن لا يستقر فى الحياة ولاتستقر الحياة به إلا عندما تخلو الحياة من الظلم والبغى والعدوان وعندما تصفو الحياة تماما من كل ما لا يتفق مع الإيمان فلا يوجد الأمن فى جو الإلحاد ولا يوجد فى جو من الظلم وإنما يشرق الأمن حيث يكون الإيمان وينمحى الظلم يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(١).

إن الذين لهم الأمن ولهم الاستقرار ولهم الحياة الطيبة يشرق بها مجتمعهم ويستشعرها أفرادهم وجماعاتهم هم المؤمنون الذين أخلصوا فى إيمانهم ولم يلبسوه بظلم.

فكانوا بعيدين عن الشرك ومذاهب الشرك وتياراته وأسبابه، كانوا بعيدين عن كل ما يطفح بالظلم أو يسير فى ركابه أو يلبس ثوبه أو يتقمص صورته، بعيدين عن الإلحاد والوجودية وعن الشيوعية، عن كل مذاهب الهدم والدمار وتيارات الغزو الفكرى الظالم.

روى عن عبد الله قال: لما نزلت ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾(٢).

قال أصحابه: وأينا لم يظلم نفسه: فنزلت (إن الشرك لظلم عظيم) وقال صلوات الله

---

(١) سورة الأنعام ٨٢.

(٢) سبق تخريجها.

وسـلامه عليه: (من أعطى فشكر ومنع فصبر وظلم فاستغفر وظلم فغفر)وسكت قال فقالوا: يار سول الله ماله؟ قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[1].

ولننظـر إلى تصويـر القرآن الكريـم للمجتمع الآمن الذى يحيا حياة طيبة فسـنجد أنه مجتمع يقوم على الإيمان والعمل الصالح يقوم بذلك أفراده ذكورا كانوا أو إناثا.

لقد قطع الله تعالى وعدا للمؤمنين الذين يعملون الصالحات والذين يقومون على أسـس الإصلاح فى المجتمع قطع الله وعدا بالحياة الطيبة الآمنة السعيدة فى الدنيا لمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح وأما فى الآخرة فيجزيه الله سـبحانه وتعالى بأحسـن ما عمله فى الدنيا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[2].

والحيـاة الطيبة تشـمل وجوه الراحة مـن أى جهات كانت والحياة الطيبة بشـمولها لوجـوه الراحة من أى جهة كانت كما يقول المفسـرون: إن معنى هذا أنها شـاملة للأمن شـاملة للرخاء شاملة لأسباب السـعادة المادية والمعنوية وليس ذلك إلا فى المجتمع المؤمن الذى يقيم شريعة الله فى الأرض، وأما المجتمعات الملحدة أو البعيدة عن شريعة الله فإنها يتهددهـا الخوف بدل الأمن والجوع بدل الرخاء، وهذا هو قانون السـماء الذى لا يتخلف والذى ضرب له القرآن الكريم المثل فى قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾[3].

وإذا كان (الجـوع والخوف) قرينى الكفر والإلحاد. كما قرر التشـريع الربانى الذى لا يتخلف فإن الرخاء والأَمْنَ قَرِينَا الإيمان والعمل الصالح أو بالجملة نتيجة (الحياة الطيبة). ويقول الله تعالى: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ

(١) سبق تخريجها.
(٢) سورة النحل ٩٧.
(٣) سورة النحل ١١٢.

خَوْفٍ ﴾[1]. وفـى جـو الايمان يـأ من المجتمع ويأمـن الناس على دمائهـم وأموالهم وأعراضهـم فيحيون حياة طيبة وتقاس مدى قوة الأمن فى المجتمع بمدى قوة إيمان أفراده فكلما كان الإيمان قويا ازدادت درجة الأمن وكلما كان الإيمان ضعيفا قل الاستقرار وانتاب الجماعات والأفراد قلق على حياتهم وخوف على دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

وكم من مجتمعات بلغت فى الحضارة شـأوا بعيدا وارسـت من القوانين الصارمة ما لا يحصى، ومع هذا عاش الأفراد فى خوف وقلق ولم يسـد الأمن بين ربوعهم ولا الاسـتقرار فى جنبات حياتهم وما ذلك إلا لخفة الإيمان وضعفه فلم يسـد كل كيانهم كما هو الحال فى المجتمعات المؤمنة التى ينطلق من داخل كل فرد من أفرادها وازع الدين وصوت الضمير الدينى ينادى كل إنسـان بين الفينة والفينة فتراهم إذا مسـهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون.

إن شـعار المجتمع المؤمـن هو الأمان (والمؤمن من أمنه الناس على أنفسـهم وأعراضهم وأموالهم) وكل حياة المؤمن فى ظل إيمانه الصادق تفيض خيرا وسـلاما ورحمة ونفعا لكل من يحيط به وفى كل ما يتصل به من شئون الحياة والأحياء فإذا شاورته نفعا وجدت وإذا شاركته وجدت نفعا وإذا ماشيته وصاحبته وجدت نفعا فأمره كله خير وخطاه وكل شئونه فيهـا النفـع والأمن والخير. إن المؤمن مصدر خير، وإن المجتمع المؤمن محوط بالأمن. وأن الإيمـان يبنى بحق المجتمعات الآمنة ويجعل منها مصادر خير ونفع وأمن لكل من يحيط بهـا من أهل ورحم وأقارب ومن جار أو ضعيـف. من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمة وليقل خيرا أوليصمت ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه وينفى الإيمان عمن بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم.

ويسـأل الرسـول ﷺ بعض أصحابه فيقول: لهم: «أتصبرون عند البلاء»؟ قالوا: نعم، قال: «أتشـكرون عند الرخاء»؟ قالوا: نعم، قال: «أتثبتون عند الحرب واللقاء»؟ قالوا نعم، قال: «مؤمنون ورب الكعبة»؟وإن الجماعة المؤمنة متضامنة على الخير، ويقيمون شريعة الله ويطبقون أحكامه. ولذا كان لهم عند الله منزلة ودرجة كريمة.

(١) سورة قريش ٣ – ٤.

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

❑❑❑

---

(١) سورة التوبة ٧١.

تهذيب الإسلام للنفس الإسلامية

من أهم الملامح الواضحة فى حياة المجتمع المسلم... أنه يعتنق الحق ويسير على ضوئه ويعمل فى دائرته. دون أن يكون هناك أى تأثير خارجى عليه، لأنه يؤمن بأن جزائه منوط بعمله فإحسانه لنفسه وإساءته لها.

وقد غرس الإسلام فى نفوس الأفراد والجماعات أصول الحق ليتبعوها ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾[1].

وأنار القرآن الكريم الطريق أمام المسلم، مبينا له أنه وحده الذى ينال مثوبة هدايته، وأنه وحده الذى ينال جزاء ضلالته فلا ينجى اهتداؤه غيره ولا يردى ضلاله سواه، وكل نفس وما حملت من وزرها، فلا تحمل وزر نفس أخرى فلكل استقلاله وجزاؤه على حدة قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[2].

وقد نعى القرآن على أولئك الذين وقعوا أسرى العادة والإلف تجافيهم عن الحق وضرب مثلهم بمن ينادى على حيوان يسمع الصوت ولا يفهم له معنى فهم فى انهماكهم فى التقليد الأعمى ووقوعهم فريسة التبعية البلهاء كمثل الصم البكم، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[3].

وهذا الصنف من الناس لم يعط نفسه استقلالها ولم يمنحها حريتها فى البحث عن الحق، وإنما حبسها بين أسوار التقاليد الموروثة توثقها العادات البالية وتمتهن كرامتها

(١) سورة الإسراء٧.

(٢) سورة الإسراء ١٥.

(٣) سورة البقرة ١٧١.

وإنسـانيتها وقد تابع الإسلام نفسـية المسلم فى سـلوكها بالتقويم والتهذيب لئلا تتأرجـح بينَ مِدّ الحيـاة وجزْرها فتتدهور قواها المعنوية تابعـة كل ناعق ومنادية كل إنسـان أنا معك محسـنا كان أو ظالما روى الإمام الترمذى بسنده عن حذيفة قال: قال رسـول الله ﷺ (لا تكونوا إمعه، تقولون: إن أحسـن الناس أحسـنا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وأن أساءوا فلا تظلموا).

فإذا كان الله تعالى قد أعد المسلم إعدادا حقا، وهيأه لأسباب الحق والفلاح بما ألهمه من رؤية واضحة للخير حتى يتبعه، وللشـر حتى ينأى عنه، فليس للمسـلم أن يكون إمعة، ولم تعدله حجة فى تعطيل ما أودعه الله فى حسه ووجدانه.

فكيف به يقف على مفترق الطرق يميل مع رياح الحياة حيث تميل، لقد سوى الحق النفس وألهمها فجورها وتقواها قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1].وفى اسـتقلال النفس الإنسانية حماية لمقومات الحق والخير التى أودعها الله فى الإنسـان. فلا يتأثـر بالعوامل الخارجية والمؤثرات المحيطة به، فإذا كان قاضيا أو شاهدا أو مدرسا أو قائما بالإصلاح بين الناس أو مقوما لأعمـال البعـض أو نحو ذلك من مسـالك الحياة التى يرتادها فـإن عليه أن ينظر إلى الحـق بغض النظر عن أى عمـل آخر أو أى مؤثر خارجى. فإذا قام الحكم بين الناس أو القضاء فيهم أو طلب منه أداء شهادة بالحق أو فصل فى خصومة فعليه أن يتحرى جانب الحق والصواب فلا تؤثر عليه صلة قرابة أو نسـب أو غير ذلك، قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[2].

وكما دعا الإسلام إلى المحافظة على قول العدل دون تأثير بصلة القرابة أو ما يدعو إلى الانحياز فكذلك حذر من أن تكون الكراهية والبغضاء من دواعى الانحراف عن الحق والعدل فقال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا

(١) سورة الشمس ٧ –١٠.

(٢) سورة الأنعام ١٥٢.

يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾[1].

وأن السلوك الإسلامى يتنافى مع الظلم، فيقيم المسلم العدل ولو على نفسه أو أقرب الناس إليه، ويتنافى مع الباطل فيقول الحق ولو على نفسه ويعدل مع العدو كما يعدل مع القريب والحبيب فهو لا تحكمه تبعية تهدم شخصيته، ولا يجور على عقيدته الهوى ولا تتسرب المحاباة إلى داخله إنه يحيا بين الناس قواما بالقسط شاهدا لله ولو على نفسه أو والديه أو أقربائه قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾[2].

ويصون الإسلام الأمة الإسلامية من التأثر بخصائص الغير وأفعاله التى لا تتفق مع روح الإسلام والتى تتنافى مع فضائله، وأما الاستبداد بالرأى أو التمادى فى الخطأ فليس فيه من قوة الشخصية واستقلالها أدنى علاقة بل إن ذلك يتنافى معها تنافيا تاما. فإن الرجوع إلى الحق فضيلة. ولا يوصف من يرجع للحق بأنه فاقد الشخصية بل إنه قوى الشخصية فى ضبط النفس وكبح جماحها والاتجاه بها صوب الحق فلا يتجمد عند الخطأ بل يفىء إلى الصواب أينما كان.

وكما أن استقلال الشخصية لا يتنافى مع الرجوع للحق فإنه كذلك لا يتنافى مع التعاون ومشاركة الأمة الإسلامية.

فالمراد باستقلال الشخصية ألا يذوب سلوك الفرد فى سلوك الأخر ولا تذوب الجماعة فى جماعة أخرى فلكل إنسان مقوماته وقدراته الخاصة، وحين يسلب هذه المقومات فلا تكون له حريته ورغبته المستقيمة المخلصة. فإنه يقوم حين يقوم بالعمل وهو مسوق إليه ومكره عليه، فلا يستشعر المتعه به ولا يتذوق الرغبة الدافعة إلى إتقانه. ومن ثم يفقد روح النشاط والحيوية، ولا يقبل على العمل بجد وفاعلية، بل يؤدى عمله وهو مكره ومتبرم.

---

(١) سورة المائدة ٨.

(٢) سورة النساء ١٣٥.

ولو ترك الإنســان بلا توجيه ســديد وأطلق لنفســه العنان دون رعاية وضبط، ومن غير حدود فإن ذلك شر مستطير، لما يترتب على سلوكه بلا مقاييس ما يترتب من إطلاق نوازعه النفسيه : فتنموا الأنانية والأثرة ويتجاوز الحدود بلا رادع أو ضابط، ومن أجل هذا كله أرسى القرآن للشخصية الإسلامية معالم محددة لا تتعداها، بحيث يجد المسلم ثواب عمله الصالح ويتحمل تبعة إساءته فقال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾[1] هذا بالنسبه للفرد فشخصيته محوطة بدائرة الحق والعمل الصالح... وأما بالنسبة لعلاقته مع الجماعة الإسلامية وعلاقة الناس مع بعضهم فإن تلك العلاقات مع ما وفره الإسلام لها من الاحتفاظ بالمقومــات بحيث لا تذوب فى الآخرين.فإنه لم يمنع الإنســان أو الجماعة من التعاون والمشاركة، بل أمر بذلك إذكاء لروح التعاون وإبقاء لوحدة الأمة واثراء لها بالعمل المشترك والتضافر المثمر، وذلك يتم فى إطار البر والتقوى بعيدا عن الإثم والعدوان كما قال تعالى:ـ ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾[2].

❑❑❑

(١) سورة فصلت ٤٦.

(٢) سورة المائدة ٢.

لاتعارض بين الإسلام والتقدم الحضارى

الإســلام هو دين العلم والمعرفة، ودين التقدم والعمران لا يأبى ـ على أتباعه أن ـ أن يصنعوا لأنفســهم وحياتهم ما يدفع حياتهم قدما إلى الأمام.. بل إن الإســلام أمر بإعداد القوة ليكون المسلمون أقوى من أعدائهم وأقدر على دفع كل عدوان يتربص بهم الدوائر.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[1] كما أمر الإسلام أتباعه بالسير والنظر فى ملكوت السموات والأرض وما بث الله فى ملكوته من آيات.

وهــذه الحضارات الإســلامية التى تبـوأت مكانتها العالمية علــى ظهر هذا الكوكب الأرضــى لم تكــن وليــدة الصدفــة... ولم تنبعث من فــراغ، وإنما أخــذت وضعها فى المجتمعات الإنســانية لأنها قامت على فكر مســتنير اســتمد أضواء خطــاه من ينابيع الإســلام الأصيلة. فلقد منح الله الإنسان عقلا مفكرا يميز بين الحق والباطل وبين الخير والشــر. ومنحه العقل أيضا ـ ليفكر ويتدبر وليبحث وينقب ويكتشف وينجح ويتقدم فى هذا الكون الفسيح.

وإلى جانــب هذه المنحة الربانية: (العقل) منح الله ســبحانه وتعالى الإنســان سمعا وبصرا وفؤادا وجعله مســئولا عما منحه إياه. فقال ســبحانه فى محكم آياته الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾[2] وقــد اضطلع رجال أفذاذ من أمتنا الإسلامية بمهمة البحث والاكتشاف لقد كان لهم منهجهم التجريبى الذى اعترفت أوروبــا ولا تزال بأنها مدينة لهم حتى الأن ومن هؤلاء: الرازى وابن ســينا فى الطب، ومنهم: الكندى فى الرياضيات وجابر بن حيان فى الكيمياء وابن الهيثم فى الطبيعة.

ويقــول الأســتاذ بريفولت فى كتابــه: «بنــاء الإنســانية»: ليس«لرجيه باكون» ولا «لفرانســيس باكون» الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى فلم يكن «روجيه باكون» إلا واســطة من وســطاء العلم والمنهج الإسلاميين إلى

(١) سورة الأنفال ٦٠.

(٢) سورة الإسراء ٣٦.

أوروبا المسيحية، وهو نفسة لم يمل - قط - من التصريح بأن تعلم معاصريه فى أوروبا اللغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقه.

تلك كانت نظرتهم وذلك اعترافهم إلى أى مدى أدركوا أهمية اللغة العربية كطريق للمعرفة الحقه. أين هذا من إهمال الكثيرين من العرب للغتهم. وأين هذا من أولئك الذين ينادون للعامية؟ وأين هذا من تلك الأمية الفاشية التى فشت فى العرب ومازالت؟

لقد آن الأوان لأن يقضى على الأمية وأن يأخذ المسلمون طريقهم إلى العلم والمعرفة وإلى الثقافة الأصيلة والحضارة الإسلامية العريقة التى أسسها أسلافنا. إن محو الأمية واجب إسلامى وإن طلب العلم فريضة على كل مسلم.

إن المسلمين إذا ما تأخروا فذلك نتيجة إهمالهم وتفريطهم فى تراثهم وليس الذنب ذنب الإسلام فالإسلام حثهم على العلم والمعرفة وأمرهم بالبحث والنظر. والله تعالى جعل لهم الأرض مهدا وسلك لهم فيها سبلا.

وطالما تفشت دعاوى زائفة أثارها أعداء الإسلام فى القديم وفى الحديث بغيا منهم وعدوانا زاعمين - كذبا وبهتانا - أن الإسلام يتعارض مع التقدم الحضارى وأن المسلمين متأخرون...

وقد وضح لنا مما سبق كيف حث الإسلام أتباعه. بل وكيف جعلهم مسئولين عما منحهم به من نعمة العقل والسمع والبصر والفؤاد.

وكما انطلقت دعاوى أخرى تقول بضرورة أخذ الحضارة الحديثة بحذافيرها ودعوات ينادى أصحابها برفض الحضارة الحديثة، وآخرون يرون أنهم معتدلون فيأخذون منها الصالح ويتركون غيره، ولكنها آراء إذا طرحت على بساط البحث والمناقشة لايبقى منها شىء. فالقول بأخذ الحضارة الحديثة جملة مرفوض لأن فيها ما ليس بصالح. ولأن فيها ما يتعارض مع روح أمة لها شخصيتها ومكانتها. والقول بتركها جملة لا يتفق أيضا بحال إذ أن هناك أشياء فى تلك الحضارة أصبحت من ضرورات الأفراد والجماعات والقول بأخذ الصالح منها أيضا مرفوض. لأن تحديد الصالح وغير الصالح سيختلف من عقل لعقل ومن فكر لفكر ومن بيئة لبيئة... ونقف بعد ذلك لنقول: فما الحل؟

والإجابة على هذا: أن فى الإسلام كما سبق نهوضا وتقدما وأن العقل الإسلامى يدين له العالم الحديث بحضارته. فليسر الفكر الإسلامى وليأخذ مسيرته المباركة موصولة من الخلف بالسلف. وليس فى الإسلام تعارض بحال من الأحوال مع الحضارة والتقدم والنهوض. بل إنه أمر بالسير والنظر والعلم والمعرفة كما سبق فالحضارة المادية والحياة العملية بمخابرها وأدواتها ومعاملها وصناعتها لاتتنافى مع الإسلام بل تتفق معه ويدعو إليها أما ما يتصل بالفكر والثقافة: فإن لنا أصول ثقافتنا التى ترتكز على الوحى الإلهى فيما يتصل بالشئون الدينية.. وقبول الفكر البشرى وما صنعه العقل المادى فى هذا الصدد قابل للخطأ والصواب ومن حاول أن يأخذ من غير أصول الإسلام ضل. وما تسرب الغزو الفكرى إلى البيئة الإسلامية إلا عن طريق فترات الضعف التى انتابت الأمة فترات وفترات.

ـ أيضا ـ عن طريق الذين خدعوا بكل فكر جديد براق وجروا يلهثون وراءه باسم الحضارة والمدنية.

إن القرآن الكريم دستور حياة كفل للبشرية سعادتها دنيا وأخرى فمن حاول التقدم عن غير طريقه ضل ضلالا مبينا، وفى الحديث: (ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله).

إن فى القرآن والسنة غناء للفكر الإسلامى وللثقافة الإسلامية يقول الله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾[١] وقد رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم قبول أى شىء يخرج عن دائرة هذين الأصلين ليضع بذلك مناهج الحياة الثقافية الإسلامية الصحيحة.

روى الإمام أحمد عن جابر رضى الله عنه: أتى سيدنا عمر بن الخطاب النبى صلى الله عليه و سلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه النبى صلى الله عليه وسلم .قال :فغضب وقال :(«أتتهوكون أى – تتشككون – فيها يابن الخطاب، والذى نفسى بيده جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شىء فيخبرونكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدّقونه والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى»).

(١) سورة العنكبوت ٥١.

منهج الإسلام فى بناء المجتمع

إذا كان منهج الإسلام، فى بناء المجتمع قد تدرج من حفظ حرمات المسلم إلى الدفاع عن شـخصيته، ثم إلى أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه وارتقى فى بناء شخصيته إلى دور الإيثار إذا كان منهج الإسـلام فيما دعا إليه قد اشـتمل على كل هذا، فإنه هنا يضع أصولا هامة على أساسها تتكون الشخصية المثالية، وتأخذ دورها فى الحياة أخذا وعطاء وتتوثق صلتها مع الله سبحانه وتعالى ومع المجتمع الإسلامى، وذلك بتقوى الله.

وفـى تعداد أوصـاف المتقين، الذين وصلوا بأعمالهم إلى مراقـى الفلاح والذين كونوا بمثالياتهم الفذة ملامح الشخصية الإسلامية، أبرز القرآن الكريم من السمات ومن الركائز ماتدور عليه سـعادة الفرد والجماعـة من العمل البدنى والعمل المالى والناحية النفسـية كالإنفاق وعدم الإضرار، وكظم الغيظ والإحسان يصور هذا قول الله تعالى:- ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾[1]... وهكذا أطلعتنا هذه الآية الكريمة على خمس سمات إذا تكاملت تكون الشخصية المثالية: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾[2]، فهم سـواء فى حالة الرخاء وفى حالة الشدة، وهنا لفتة حكيمة حيث بدأت صفات المتقين بالإنفاق وذلك لسـببين: أولا لمقابلته بالربا الذى نهى الله عنه فى آية سـابقة، حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[3] فـإذا كان فى الربا اسـتغلال من الغنى

(١) سورة أل عمران ١٣٣ – ١٤٣.

(٢) سورة آل عمران ١٣٤.

(٣) سورة آل عمران ١٣٠.

للفقير وانتهاز لحاجته وفاقته لأكل ماله بغير وجه حق، فإن الصدقة مساعدة للفقير وعونا له، لا يبتغى على ذلك جزاء فالإنفاق دليل على صدق الإيمان وبرهان على قوة اليقين.. فلا يجعلهم اليسر فى بطر ولا يوقعهم العسر فى القنوط، فهم لا يقتصرون فى تعاونهم على حالة الرخاء والنعمة بل هم فى الحالين سواء، فلما كان الإنفاق أدل على التقوى وأعظم نفعا للمجتمع الإنسانى من سائر الأعمال الأخرى استهلت الآية الشريفة موكب المتقين وملامح الشخصية الإسلامية بالإنفاق وتنتقل بنا الآيات من جانب الإنفاق والتكافل الاجتماعى إلى الناحية النفسية «والكاظمين الغيظ» فشخصية المسلم تظهر فى قدرته على ضبط النفس وحبس الغيظ بالصبر عندما يهضم له حق، أو ينال منه أحد، فيكبح جماح نفسه ولا ينزلق فى الشر ولا يشعل الفتنة... ثم يرقى الإسلام بنفس المسلم، فبعد أن أطفأ جذوة الشر التى تكاد تندلع وذلك بكظم الغيظ انتقل بالمسلم إلى درجة أسمى فيها معالجة للنفس، وارتفاع إلى مرتبة أسمى من السابقة فقد يكظم الإنسان غيظه، ولا يزال فى قلبه شىء من الضغينة أما العفو فيمسح مابقى من الشر حتى يعود القلب نقيا.

وفيما رواه الطبرانى عن عبادة بن الصامت قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بما يشرف الله به البنيان ويرفع الدَرجات ؟ قالوا نعم يا رسول الله، قال : تحلم على من جهل عليك، وتعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك»....

ثم تنتقل الآيات إلى مرتبة أسمى: «والله يحب المحسنين» وإذا كان العفو منزلة فوق العدل، كان عند بعض العلماء إحسانا وعلى هذا فمعنى «والله يحب المحسنين» أى الذين أحسنوا فى معاملتهم وعفوهم، وفى هذه الآية كذلك سمة أخرى يبلغ بها المسلم قمة المثالية، بحيث لا يكتفى بكظمه غيظه أو عفوه فحسب بل إنه يحسن إلى من أساء إليه وقد روى أن بعض السلف غاظه غلام له غيظا شديدا فهم بالانتقام منه فقال الغلام والكاظمين الغيظ فقال «كظمت غيظى» قال الغلام : والعافين عن الناس قال: عفوت عنك قال : «والله يحب المحسنين» قال اذهب فأنت حر لوجه الله ثم تطوف بنا آيات القرآن فتكشف عن الطبيعة البشرية وأنها عرضة للخطأ والزلل، وهنا تبدو شخصية المسلم،

بالمسارعة إلى الرجوع لربه والتوبة النصوح: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾[1] وأن سماحة الإسلام لا تدعهم فى مؤخرة القافلة، بل ترفعهم إلى مصاف التوابين المنيبين، بهذه المعالم المتميزة ترتقى شخصية المسلم، ففى جانب المال ينفق فى السراء والضراء شاكرا الله على نعمته ويبرهن على صدق عقيدته ولا يخشى من ذى العرش إقلالا، وفى الجانب النفسى يتحلى بضبط النفس وبالعفو عمن ظلمه، وبالإحسان إلى من أساء إليه وفى جانب المعصية والمخالفة لايجعل للشيطان سلطانا عليه، فإذا مسه طائف من الشيطان تذكر فيشق الطريق إلى ربه، ويثوب إلى رشده ويتوب لله الغفور الرحيم . ان شخصيتة هنا تتغلب على الشيطان، وعلى هوى النفس الأمارة بالسوء وتظل قوية بالله، تسرع بالإنابة إليه.

التناصح التزام... بواجب العقيدة:

ومن أهم ما يقوم به المسلم من واجبات تعبيرا عن عقيدته، والتزاما بواجبات دينه النصح، إذ أنه فى حب الخير لنفسه أو للغير واجب عليه أن يقبل نصيحة من ينصحه فى الخير، وأن يقوم بنصيحه غيره من الناس وشخصية المسلم فى قبول النصيحة وفى العمل بها تظهر حين يرى ما كان عليه من باطل أو شر ثم يستمع إلى نصيحة أخية المسلم فإذا به يسرع بإجابته، ويثوب إلى الرشد وإلى الصواب ويقلع عن الشر ويقدم على الحق والخير، ويرى أن الرجوع للحق فضيلة وأن التمادى فى الباطل رذيلة إذ ليس معنى شخصية المسلم الجمود على ما هو عليه حتى وإن كان على غير الحق، لا إن هذا الجمود، وعدم الاستجابة للنصيحة هدم لبناء الشخصية ومسخ للصورة الحقيقية التى ينبغى أن يكون عليها المسلم من معرفة الحق واتباعه، ومعرفة الباطل واجتنابه ولطالما ظلم المستبدون بالرأى مفهوم الشخصية وأساءوا التمثيل بها، فظنوا أن الوقوف عند رأيهم وإن كان غير صواب من معانى الشخصية، فمنهم من دافع عن رأيه وتشبث باقتناعه، وأحس أن فى رجوعه عنه ظهورا بالضعف أو رميا بالجهل والنقيصة وأما

(١) سورة آل عمران ١٣٥.

شـخصية المسـلم فى القيام بالنصح، فذلك بأن يقول الحق ولو على أقرب الناس إليه، وألا يخشـى فى الله لومة لائم، إنه يبذل النصيحة لله سـبحانه وتعالى ولكتابه ولرسوله ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم...

❑❑❑

الاعتدال بين الحياة المادية والروحية

الإســلام هو دين اليسر والســماحة، تضمنت تعاليمه القويمة ومبادئه السمحه ما فيه سعادة الناس دنيا وأخرى . وهو دين ينظم العلاقات القائمة بين البدن والنفس، أو بين متطلبات الجسد وبين الجانب الروحى فى الإنسان.

ففــى كل إنســان جانبان أحدهما مادى يتطلب الطعام والشــراب والملبس والمســكن والزواج وما إلى ذلك مما جرت عليه سنة الحياة.

والجانب الآخر روحــى يتطلب صقل النفس وتهذيب الروح والاتجاه إلى الله يهذب النفس وينقيها ويصل بها إلى مرتبة التقوى كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾(1) وغــير ذلك من العبادات التى شــرعها الإســلام وغير ذلك من الطيبات التى أباحها الإســلام للإنسان حتى يتواءم نظام البدن والروح ولا يحدث هناك تفرقة أو انفصال بينهما.

والغلو فى أحد الجانبين خروج عن سواء السبيل، والتقصير فى أحد الجانبين تضييع لحقــوق يجــب أن تراعى، وإهمال لأوامــر لها أهميتها ومنزلتها... ومــن هنا كان نداء الإسلام بين المادة والروح معتدلا وقائما على أساس تنظيم العلاقة بين البدن والروح، وإذا اســتقام الأمر وانتظمت الحال انتظمت العلاقات الأخرى وأخذ الإنســان طريقه إلى ربه سبحانه وتعالى فى اعتدال لا عوج فيه. وفى انتظام لاغلو فيه ولا تقصير فلا رهبانية فى الإســلام ولا مشقة أو تعب يصيب البدن، ولكنها التشريعات الصحيحة التى أبطلت ما كان عليه البعض من رهبانية وما حاوله البعض من عزل الدين عن الحياة وعندئذ تضل الحيــاة فإذا عزل الدين عن الحياة ضلت طريقها وتخبطت فى شــكوك وأوهام، فالدين بمبادئه ونظمه وبتعاليمه وقيمه يضىء للحياة طريقها ويبعث فى جوانبها الحياة والأمل ويجعلها دائمة موصولة بالخير الدائم الذى لا ينقطع وبالفضل المستمر الذى لا يتوقف، وعــن تلك الرهبانية التى لم يرعهــا أهلها تحدث القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيۡنَا

(1) سورة البقرة ١٨٣.

عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[1].

وفى السنة الشريفة تحذير من تلك الرهبانية وترغيب فى إعطاء الجسم حقه من الراحة ومن طيبات الحياة عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن نفرا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم سألوا عن عمله فى السر فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل الطعام وقال بعضهم: لا أنام على فراش فبلغ النبى ﷺ ذلك فحمد الله وأثنى عليه وقال: ما بال أقوام قالوا: كذا وكذا؟ ولكنى أصلى وأنام وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى. وقال الله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾[2] وقد وجه القرآن الكريم أنظار المسلمين وقلوبهم إلى حقيقة هذه الحياة الدنيا وأنها لعب ولهو وزينة، والناس فيها متفاخرون ومتكاثرون، ولكن نهايتها إلى زوال وآخرتها إلى فناء فلا بقاء لها ولا خلود فيها وكل ما عليها عرض زائل فليس لإنسان أن يتكالب عليها أو أن يتزاحم على حطامها ويتقاتل على بريقها وإنما الواجب على الإنسان أن يكبح جماح نفسه فيعمل لآخرته وليس معنى هذا أن يهجر دنياه أو أن يتركها ويهملها؟ لا... وإنما يوفق بين دار العمل والتكليف، وبين ما تطلبه دار الجزاء الدار الأخرى التى هى خير وأبقى، يقول الله سبحانه: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾[3] وحين يقصر الناس اتجاههم فى الحياة على طلب المال والولد والمنصب فإنهم حينئذ يتجهون اتجاها ماديا بحتا...

---

(١) سورة الحديد ٢٧.

(٢) سورة القصص ٧٧.

(٣) سورة الحديد ٢٠.

والإسلام لا يحرم التمتع بالطيبات وينادى بعمارة الحياة بالمال والولد ولكن على شرط أن تكون قائمة على أُسُسٍ من الفضائل والمثل التى نادى بها. والإسلام لا يحرم طيبات الحياة ولكن ينادى بأن تشرق بالإيثار والبذل والتضحية والإخلاص والتعاون والتساند على البر والتقوى قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾[1]. وبين الله سبحانه أنه لم يحرم زينته التى أخرجها لعباده ولا الطيبات من الرزق فقال جل شأنه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[2] وأما محاربة الإسلام للمادية الطاغية البحتة فذلك لأنها نأت عن القيم الرفيعة والآداب العالية والمثل الحية وأصبح هؤلاء الماديون المغالون يمثلون نشاطا جامدا خاليا من الروح والمعنى بعيدا عن المبادىء السامية وأصبح هؤلاء الماديون يمثلون حربا على المعانى الإنسانية وعلى الفضائل الكريمة.

إن هؤلاء الماديين قد ضل سعيهم فى الحياة ويزعمون أنهم يفعلون فعلا حسنا ويقومون بإصلاح فى الحياة، لقد انطبق عليهم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[3].

وأما السائرون على نهج الإسلام فى اعتداله بين الطرفين بدون إفراط أو تفريط ومن غير غلو ولا تقصير...

فإن الله سبحانه وتعالى يزيدهم هدى على هداهم. قال سبحانه: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾[4]. تلك حقيقة قرآنية لا يرتاب فيها امرؤ ومعه عقله فالمهتدون السائدون على الحياة هم الذين يزيدهم الله هدى وبهم يشرق المجتمع الإسلامى بالمعانى النبيلة الفاضلة، والذين لا تشدهم الحياة الدنيا ولا تجذبهم بزخارفها وهم الذين فطنوا لدورهم فى الحياة ومهمتهم السامية فى المجتمع

(١) سورة الكهف ٤٦.
(٢) سورة الأعراف ٣٢.
(٣) سورة الكهف ١٠٤.
(٤) سورة مريم ٧٦.

الإنســانى ومن أجل ذلك فهم حريصون على أن يتمثلوا مبادىء الحق. وأن يرتادوا ســبل الخير والإصلاح وهم بهذا كله جديرون بأن يُمكّن الله تعالى لهم فى الأرض، وقد رسم القرآن الكريم صورة مشرقة ووضح ركائز التمكين فى الأرض وهى تتركز فى المبادىء الآتية :ـ

أولا : توثيــق الصلة بالله ســبحانه وتعــالى، بالقيام بأداء أوامــره واجتناب نواهيه، والإعــلان عن ذلك إنما يتمثل فــى القيام بالصلاة التى هى عنوان الطاعة لله ســبحانه وتعالى، فالصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين، وهى تكف صاحبها عن الفحشــاء والمنكر كمــا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1] . وهى الصلة الوثيقة بين العبد وخالقة الكبير المتعال.

ثانيا : ربط الصلة بالمجتمع ونشر وسائل التكافل الاجتماعى تأكيدا وتنمية للعلاقات الإنسانية الفاضلة بين الإنسان، وأخيه الإنسان وعلى قمة هذه العلاقات أداء الزكاة...

ثالثــا : المهمة الكبرى التى تتطلب الغيرة من كل مســلم علــى دينه ودعوة الغير إلى الرشــد والخير بالحكمة والموعظة الحســنة والعمل على نشر فضائل الإسلام ومبادئه عن طريق الدعوة إلى الله ومحاربة المنكر ومقاومة الشر والفساد أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر .قــال الله تعــالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[2].

إن ركائز التمكين فى الأرض تعنى القيام بواجب الإنسان المسلم تجاه خالقه سبحانه وتعالى وتجاه نفســه، وتجاه المجتمع الــذى يعيش فيه، فينبغى عليه أن يكون حريصا على نشر الفضائل ومقاومة المنكر.

كما يجب على كل مسلم أن يدرك أهمية الوقوف عند معالم الحق والخير بحيث لا يميل ولا يحيد ولا ينحرف يَمْنَةً أو يسرة .

كما يجب عليه الوقوف فى مواجهة التيارات المادية الجارفة التى تشــكلت بأشكال

(١) سورة العنكبوت ٤٥.

(٢) سورة الحج ٤١.

مختلفة وتَسـمّت بأسماء متباينة متخذة بعض المذاهب الفاسدة وبعض النظريات الوافدة مذهبـا وطريقا، وفى هذا تضييع للقيم وحرب للإسـلام فيجـب الوقوف فى وجه تلك التيارات من شيوعية وقاديانية وبهائية وغير ذلك من المذاهب الهدامة .

ومقاومــة هذة التيــارات الوافدة من أهم ركائز التمكين فى الأرض لأنه باب واسـع من أبواب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى جعله الله سبحانه وتعالى من أهم دعائم خيرية هـذه الأمة فى قوله سـبحانه وتعــالى :﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾(١) .ويقول رسـول الله صلوات الله وسلامه عليه «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يسـتطع فبلسـانه فإن لم يسـتطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» .

رد بعض الشبهات

وقد أثار أعداء الإسـلام وخصومه بعض الشـبهات يحاولون أن يتهموا الإسلام بأنه مادى وبنقص الناحية الروحية فيه، وهى بدون شك شبهة واهية لا أساس لها من الصحة فإن التشـريع الإسـلامى جاء وافيا بحاجات البدن والروح وبتنظيم الجانبين والاعتدال بينهمـا بلا إفراط أو تفريط، ومن المعلوم أن الإنسـان يتكون من عنصرين أحدهما مادى والآخر روحى وقد توسط الإسلام بين الطرفين والتوسط هو الفضيلة المثلى وقد وجه القرآن الكريم جميع المسلمين إلى مراعاة مطالب الدنيا والأخرة فقال سبحانه وتعالى :ـ ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾(٢) ونهــى القـرآن عن تحريـم الطيبات حفاظا على جانب الاعتدال بين المادة والروح كما حرم الاعتداء ومجاوزة الحد فى ذلك، بل

---

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة البقرة ٢٠٠ ـ ٢٠٢.

علـى الإنسـان أن يـأكل ممارزقة الله مـن الحلال الطيب على أسـاس من التقوى والإيمان .

قال سـبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾[1] ويركز الإسـلام بتوجيهه للمسلمين محذرا لهم أن تفرقهم الحياة الدنيا بماديتها ومباهجها وأن الأموال والأولاد فتنة وعند الله عظيم الأجر للمخلصين فقال سـبحانه: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[2].

وقـال تعـالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾[3]. وقد وضح الإسـلام أهمية طلب الآخرة وضرورة العمل لها، فمن كانت الآخـرة همه وعمل لها جمـع الله له ما يريد وجعله غنى النفـس غنيا بالإيمان وتأتيه الدنيـا منقادة راغمة، وأما الذى ينكب على المـادة يجمعها ويجعل الدنيا همه فإن الله يجعل الفقر بين عينيه، ومهما واصل التعب والكد فى سـبيلها فإنه لا ينال منها إلا ما قدره الله سبحانه وتعالى.

عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يؤته من الدنيا إلا ما كتب له ومن كانت الآخـرة همه جمـع الله أمره وجعل غناه فى قلبه، وأتته الدنيـا وهى راغمة)).. وحياة السـلف حافلة بالايثار والبذل والتضحيـة والمعروف حتى وإن ترتب على ذلك بذل كل ما يمتلكون . نعم الإسـلام دعا بالتوسـط كما سبق .. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾[4].. ولكن سلفنا الصالح فى نظرتهم الإيمانية الفاحصة

(١) سورة المائدة ٨٧.

(٢) سورة الأنفال ٢٨.

(٣) سورة آل عمران ١٤ ـ ١٥.

(٤) سورة الإسراء ٢٩.

يدركون قيمة ميراث الأبناء من بعد .. وخطورة المادة حين يقوى جانبها ويشتد وحين يمسك الأبناء بها وينحرفون بسببها .

فمن الناس من يورث أبناءه أموالا طائلة وعقارات لا حصر لها ظنًّا منه أنه حين يفارق الحياة يفارقها وهو مطمئن عليهم من الفقر، ولو أنه ورث أبناءه ثروة الإيمان والعمل الصالح والقيم الروحية والتهذيب الخلقى لكانوا أغنى بكثير وأعظم وأسعد من ميراث المال الذى ربما أفسدهم ومزقهم، ومن الناس من يورث أبناءه إيمانا صادقا وعملا صالحا وسلوكا قويما، ولم يترك لهم من المال شيئا فإذا بثورة الإيمان والعمل الصالح تجعلهم أغنياء فى الدنيا وفى الآخرة . وها هو ذا نموذج من السلف الصالح إنه الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لقد قال له مسلمة بن عبد الله - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مرض موته - يا عمر لقد تركت أولادك لاشىء عندهم فيصبحون فقراء وما كان هذا يقع منك يا عمر. فرد عليه قائلا : والله ما منعتهم حقا لهم، فَبَنِيَّ أحدُ رجلين ... إما رجل يتقى الله فسيجعل الله له من كل ضيق مخرجا ويرزقة من حيث لا يحتسب وإما رجل مكب على المعاصى فإنى لم أكن أقويه علىمعصية الله. إن الإسلام دعوة إلاهية لسعادة البشر دنيا وآخرة وفى قوانينه الرشيدة أمان للنفس والمال والعرض، وفى ظل تعاليمه السمحه المضيئة تشرق حياة الناس بالخير والرشد والحق والسعادة والله هو الهادى إلى سواء السبيل.

❑❑❑

العمل فى ضوء القرآن الكريم

الإيمان والعمل .. هما الأساسـان الأصيلان فى الإسلام والمتصفح لآيات القرآن الكريم التى تحدثت عن الإيمان يرى الحديث بعده مباشرة عن العمل فالإيمان بلا عمل لا أثر له والعمل بدون إيمان لا وزن له وخلاصة التوجيه الإسـلامى تتركز فى الإيمان والعمل أو فى العقيدة السليمة والأعمال المستقيمة التى يتسم صاحبها بالاستقامة على الجادة.

عن سـفيان بن عبد الله الثقفى قال قلت لرسـول الله ﷺ قل لى فى الإسـلام قولا لا أسـأل عنه أحدا بعدك ؟ قال : «قل آمنت بالله ثم اسـتقم» رواه مسـلم وقد صور القرآن الكريـم وعد الله تبارك وتعالى الذى لا يتخلـف وهذا الوعد يتركز بالفوز بجنات تجرى مـن تحتها الأنهار أنـه فوز دائم بـلا زوال لأولئك الذين جمعوا بين العقيدة السـليمة والعمل الصالح وتلك هى القاعدة الصحيحة التى يترتب عليها الجزاء فى الآخرة لا كما يدعى البعض أنه بمجرد التمنى وفى الآيات توضيح وتبسيط لقضية الإيمان حيث يقول الله تعـالى : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾[1].

وفيمـا رواه الإمام أحمد بسـنده عن أبى بكر بـن أبى زهير قال: أخبرت أن أبا بكر رضـى الله عنه قال : يا رسـول الله كيـف الفلاح بعد هذه الآيـة .. ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[2] فقال النبى صلوات الله وسـلامه

(١) سورة النساء ١٢٢ – ١٢٦.

(٢) سورة النساء ١٢٣.

عليه : غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟ إن الذى يعمل سوءاً يجزى بما عمل وليس من أحد يحفظ الإنسان أو يرد عنه العذاب أو يمنعه منه إلا الله وبعد أن وضح سبحانه وتعالى الجزاء على السيئات ذكر الجزاء على العمل الصالح موضحا كرامته وإحسانه وقبول الأعمال الصالحة من العباد من الذكور والإناث بشرط الإيمان وأنهم بذلك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا وهو قدر نقرة النواة...

ثم وضح القرآن الكريم شرطين أساسيين لصحة العمل أولهما إخلاص العمل لله بإحسان الوجه لله وثانيهما أن يتبع فى كل ما يأتيه من أعمال ما شرعه الله سبحانه وتعالى :-

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾(١)...

وذلك باتباع الدين القيم والبعد عن غيره وهذا يقتضى من الإنسان المسلم استقامة السلوك وتطبيق العقيدة بالعمل ومقاومة كل موجات التحلل وكل تيارات الإلحاد والانحراف التى تطفو على سطح الحياة بين فترة وأخرى مشكلة بأشكال مختلفة ومتقنعة بقناع الحضارة تارة ومتسترة باسم الثقافة تارة أخرى...

وتأكيدا للترغيب فى اتباعه بيَّن الله تعالى أن إبراهيم عليه السلام صفى الله خالص المحبة له وذلك بقوله :-

﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾(٢).

وتختم الآيات الكريمة مطافها فى الحديث عن قضية الإيمان والعمل وعن قبول العمل والجزاء عليه ببيان أن الله له - وحده - ملك السموات والأرض يتصرف فيهما كيف يشاء لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه وأنه محيط بكل شىء لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ومتى وقفت النفس البشرية على هذه الحقيقة القرآنية فهى لابد أن تعمل لإرضاء الخالق القادر المحيط بكل شىء.

(١) سورة النساء ١٢٥.

(٢) سورة النساء ١٢٥.

وفــى ظل هــذا العمل وفى جو هــذه الطاعة التــى ترتبت على الاعتقــاد الصحيح المثمر فى هذا كله صلاح للمجتمع الإســلامى كله بِأَسْـرِه فى ســلوكه وفى سائر الأعمال والعلاقات :-﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴾[1]...

ولقد أكد القرآن حقيقة الجزاء على العمل فى مواضع عديدة موضحا أن لكل إنســان جزاء عمله إن خيرا فخيرا وإن شــرا فشــر.. قال الله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[2] وحقيقة العمل تختلف من إنســان لآخر فبينما يكون إنســان على الجادة ويتبع الحق ويعمل له.. نرى آخر ليس على الجادة... أو يحاول أن يظهر كذلك، والاختلاف بين الاثنين واضح وجوهر الحقيقة الفاصلــة إنما هو العمل لأنــه التطبيق الفعلى الذى يميز بين الســلوكين بل قد تختلف حقيقة العمل وقضيته لا بين إنســان وآخر بل بين الإنسان نفسه، فى بعض أوقاته وفى بعــض أعماله فيكون فى بعض الأعمال محســنا للعمل مجيدا لــه.. وفى البعض الآخر ليس كذلك ولكنه يحاول تبرير موقفه وإقناع نفسه وانتحال الحيل والمبررات بأنه حسن العمل والسلوك.

ولكن الإســلام يجعل الدرجة الرفيعة فى الإحســان هى كما جاء فى الحديث: «أن تعبــد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».... وما دام يضع فى قلبه وفى ذاكرته وفى حسه أن الله مطلع عليه ويراه فلا بد أن يحسن العمل وأن يخلص الوجهة لله رب العالمين.

❑❑❑

(١) سورة النساء ١٢٦.

(٢) سورة الزلزلة ٧ ـ ٨.

الإسلام وتوثيق العلاقات

ومن أهم ما يميز المسلم قدرته على توثيق العلاقات الإنسانية والاجتماعية بينه وبين مجتمعه الذى يعيش فيه، وللعلاقات الطيبة النقية أثرها الكريم فى غرس المودة فى النفوس، وإشاعة الخير فى المحيط الإنسانى، وفى دائرة العلاقات، يظهر أثر الإنسان فى الغير، كما يظهر أثر الغير فى الإنسان ولهذا نجد الإسلام قد دعا إلى اختيار الأصدقاء، وتمييز الأخلاء، ففيما رواه أبو داود يقول الرسول ﷺ: «فلينظر أحدكم إلى من يخالل»)...

وللبيئة تأثيرها فى سلوك الإنسان وعلاقاته ومعاملاته، فإن كانت البيئة صالحة ترعرعت فيها الصداقة وازدهر فى جوانبها العلاقات الطيبة، وكان لها أكبر الأثر فى إصلاح السلوك، وتقويم المعوج وإرشاد الضال، ومساعدة المحتاج، وإعانة الضعيف، وإن كانت فاسدة فقد يمرض فيها الصحيح، ويضل فيها الصالح، ففى جوها الملبد، ومناخها الخانق لا تستطيع أن تتنفس الفضائل، وفى أرضها المجدبة لا تنمو العلاقات الكريمة إلا قليلا... وكم رأينا من نفوس صالحة أفسدتها البيئة الضالة، ونفوس ضالة أصلحتها البيئة الرشيدة...

وللجليس الصالح والجليس السوء أثره البالغ على من يجالسه.. روى الإمام أحمد بسنده عن أبى موسى عن النبى ﷺ: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير.. فحامل المسك إما أن يحذيك - أى يعطيك - وأما أن تبتاع منه، وإما أن تجد ريحا طيبة... ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة») .

وللعلاقات السيئة نهايتها الأليمة، وعاقبتها الوخيمة، فهى تجر على صاحبها الويلات والخطوب وتجعله ينظر للحياة بمنظار قاتم، لا يبصر ما فى الحياة من معان إنسانية، وكأنه لا يرى المجتمع إلا من خلال تلك العلاقات الهابطة، والأسباب الرخيصة، فلا يخف للعمل بإخلاص، ولا يطمح إلى الآمال الناضرة التى تملأ الحياة بالجد والاجتهاد، وجانب الإخلاص فى علاقاته مع قرناء السوء مفقود وشخصيته مفتتة تذروها رياح الأهواء

ونزعات النفس الأمارة بالسوء... ومظهره غائم كمخبره، لا يستطيع الإنسان أن يصفه بسلوك معين أو أن يميزه بسمة واضحة، فهو غير مستقر فى حياته، لأنه فقد أهم أسس الاستقرار والرشد... لقد فقد مقتضيات العقيدة الصحيحة التى تربطه بربه الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والذى يعلم سرهم ونجواهم. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

وإن موقف قرناءالسوء فى الآخرة، موقف العداوة بينهم، فيومها يشعرون بسوء علاقتهم ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

وقد صور القرآن الكريم نهاية من أضله خليله، فتمسك بحبل الشيطان فندم حيث لا ينفع الندم وتحسر على علاقة السوء..﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾(٣).

هذا وقد سلك الإسلام بأتباعه سبيل التعاون فى علاقتهم، وأرسى مبادىء الود والتواصل بين المسلمين، فشرع الهبة والهدية، جبرا للقلوب وغرسا لأسباب المحبة، والألفة بين الناس كما حث على قبول الهدية الخالصة النقية التى لا تشوبها شائبة، إذ أن لها أثرها فى اقتلاع جذور الشر والكراهية وتنقية النفوس من المشاعر السيئة، وقد أعلن رسول الله ﷺ قبول الهدية مهما قلت، وإجابه دعوة من دعاة، روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لو دُعيت إلى ذراع او كراع لقبلت» ...

وكان عليه الصلاة والسلام يكافىء على الهدية لتظل أسباب المودة موصولة وليظل

---

(١) سورة المجادلة ٧.
(٢) سورة الزخرف ٦٧.
(٣) سورة الفرقان ٢٧ ـ ٢٩.

التواصـل وتبـادل المنافع والتعاون على البر والتقوى، فـكل ذلك من أهم ما ينعش العلاقات ولا سيما بين الجيران... وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاه».

ومن أهم قوانين الإسـلام فى تنقية العلاقات وابراز الشخصية الإسلامية فى صورتها الكريمـة المخلصة والإصلاح بين الناس، قـال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(1) .. والعلاقـات الإنسـانية والاجتمعاعية متسـعة الجوانب، متشـابكة الفروع، إنها تشـمل علاقات الأقارب والجيران والضيوف والغرباء وعلاقات أفراد المجتمع بكل دوائره ومؤسساته وعلاقات المجتمعات بعضها ببعض...

وهكذا وفى ضبط سيرها وحسن اتصالها ما يظهر البيئة الإسلامية فى صورتها المشرقة ويضفى على شـخصيتها المهابة والتقدير، ومن حسـن السـمات ما يجعلها بيئة خصبة مترعة بالفضائل، دفاقة بالحق والخير...

❑❑❑

(1) سورة الحجرات ١٠.